من صفحة 372 : نهاية المجلد

المجلد التاسع

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بني حماد

في هذه السنة، سار عبد المؤمن بن علي ، إلى بجاية، وملكها، وملك جميع ممالك بني حماد، وكان لمّا أراد قصدها، سار مِنْ مراكش إلى سبتة، سنة ست وأربعين ، فأقام بها مدة يعمل الأسطول ، ويجمع العساكر القريبة منه ، وأما ما هو على طريقه إلى بجاية من البلاد، فكتب إليهم ليتجهزوا، ويكونوا على الحركة أي وقت طلبهم ، والناس يظنون انه يريد العبور إلى الأندلس ، فأرسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب ، براً وبحراً، وسار من سبتة في صفر، سنة سبع واربعين ، فأسرع السير، وطوى المراحل ، والعساكر تلقاه في طريقه ، فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها، وكان ملكها يحيى بن العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد وكان مولعاً بالصيد واللهو، لا ينظر في شيء من أمور مملكته ، قد حكم فيها بنو حمدون ، فلما اتصل الخبر بميمون بن حمدون ، جمع العسكر، وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن فلقيهم مقدمته وهي تزيد على عشرين ألف فارس ، فانهزم أهل بجاية ، من غير قتال ، ودخلت مقدمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين ، وتفرّق جميع عسكر يحيى بن العزيز، وهربوا براً وبحراً، وتحصن يحمص بقلعة قسطنطينية الهواء، وهرب اخواه الحرث ، وعبد الله ، إلى صقلية، ودخل عبد المؤمن بجاية، وملك جميع بلاد ابن العزيز، بغير قتال ، ثم إنّ يحيى نزل إلى عبد المؤمن بالأمان ، فأمّنه ، وكان يحيى قد فرح ، لما أُخِذت بلاد أفريقية من الحسن بن علي بن فرحا ظهر عليه فكان يذمه ، ويذكر معايبه ، فلم تطل المدة، حتى أخذت بلاده ، ووصل الحسن بن علي ، إلى عبد المؤمن في جزائر بني مزغنان – وقد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين ، سبب مصيره إليها – واجتمعا عنده ، فأرسل عبد المؤمن يحيى بن العزيز إلى بلاد المغرب ، وأقام بها وأجرى عليه

شيئاً كثيراً ، وأما الحسن بن علي ، فإنه أحسن إليه والزمه صحبته ، وأعلى مرتبته ، فلزمه إلى أنْ فتح عبد المؤمن المهدية،فجعله فيها، وأمر واليها أنْ يقتدي برأيه ، ويرجع إلى قوله ، لي لما فتح عبد المؤمن بجاية، لم يتعرض إلى مال أهلها، ولا غيره ، وسبب ذلك ، أن بني حمدون استأمنوا فوفى لهم بأمانه .

ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجه

لما ملك عبد المؤمن بجاية، تجمعت صنهاجة في أمم لا يحصيها إلا الله تعالى، وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبة، واجتمع معهم من كتامة، ولواثة، وغيرها، خلقٌ كثير، وقصدوا حرب عبد المؤمن ، فأرسل إليهم جيشاً كثيراً، ومقدمهم أبو سعيد يخلف ، وهو من الخمسين ، فالتقوْا في عرض الجبل ، شرفي بجاية ، فانهزم أبو قصبة ، وقُتِل اكْثَرُ مَنْ معه ، ونُهِبت أموالهم ، وسُبِيت نساؤهم وذراريهم ، ولما فرغوا من صنهاجة ، ساروا إلى قلعة بني حماد، وهي من أحصن القلاع ، وأعلاها لا ترام ، على رأس جبل شاهق ، لا يكاد الطرف يحققها لعلوها، ولكن القدر إذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوشي ، فلما رأى أهلها عساكر الموحدين ، هربوا منها في رؤوس الجبال ، ومُلِكت القلعة واخِذ جميع ما فيها من مالٍ وغيره ، وحُمِل إلى عبد المؤمن ، فقسمه بين أصحابه .

ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود

في هذه السنة، أول رجب ، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، بهمذان ، وكان مرضه حمى حادة ، نحو اسبوع ، وكان مولده سنة اثنين وخمسمائة ، في ذي القعدة، ومات معه سعادة البيت السلجوقي ، فلم يقم له بعده راية يعتمد بها، ولا يلتفت إليها :

فما كانَ قيس هلكه هلك واحدٌ ولكنّه بنيان قوم تهدَّمَا

وكان ، رحمه الله ، حسن الأخلاق ، كثير المزاح ، والانبساط مع الَناس ، فمن ذلك أنّ أتابك زنكي ، صاحب الموصل ، أرسل إليه القاضي ، كمال الدين محمد بن عبد الله ابن القاسم الشهرزوري في رسالة ، فوصل إليه ، وأقام معه في العسكر، فوقف يوماً على خيمة الوزير، حتى قارب أذان المغرب ، فعاد إلى خيمته ، فأُذّن المغرب وهو

في الطريق ، فرأى إنساناً فقيهاً في خيمةٍ ، فنزل إليه فصلّى معه المغرب ، ثم سأله كمال الدين من أين هو، فقال : أنا قاضي مدينة كذا، فقال له كمال الدين : القضاة ثلاثة :

قاضيان في النار، وهو أنا وأنت ، وقاضٍ في الجنة، وهو من لم يعرف أبواب هؤلاء الظلمة ، ولا يراهم ، فلما كان الغد ، أرسل السلطان ، وأحضِر كمال الدين إليه ، فلما دخل عليه ، ورآه ضحك . وقال : القضاة ثلاثة ، فقال كمال الدين نعم يا مولانا ، فقال : واللهّ صدقت ، ما أسعد من لا يرانا ولا نراه ، ثم أمر أنْ تُقْضى حاجته ، وأعاده من يومه ، وكان كريماً، عفيفاً عن الأموال التي للرعايا، حسن السيرة فيهم ، منْ أصلحِ السلاطين سيرةً، وألينهم عريكة، سهل الأخلاق ، لطيفاً، فمن ذلك أنه اجتاز يوما، في بعض أطراف بغداد،فسمع امرأةً تقول لأخرى : انظري الى السلطان ، فوقف وقال : حتى تجيء هذه الست تنظر إلينا. وله فضائل كثيرة، ومناقب جمة، وكان عهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود فلما توفي خطب له الأمير خاص بك ، ورتب الأمور، وقررها بين يديه ، وأذعن له جميع العسكر بالطاعة ، ولما وصل الخبر إلى بغداد بموت السلطان مسعود، هرب الشحنة بها ، وهو مسعود بلال ، إلى تكريت ، واستظهر الخليفة المقتفي لأمر اللهّ على داره ، ودور أصحاب السلطان ببغداد! وأخذ كل ما لهم فيها، وكل من كان عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان ، وجمع الخليفة الرجال ، والعساكر، وأكثر التجنيد، وتقدم بإراقة الخمور، مِنْ مساكن أصحاب السلطان ، ووُجدَ في دار مسعود بلال شحنة بغداد كثيرٍ من الخمر، فأُريق ، ولم يكن الناس يظنونَ أنه شرب الخمر بعد الحج ، وقًبضَ على المؤيد الأنوسي الشاعر، وعلى الحيص بيص الشاعر، ثم أُطلِق الحيص بيصَ ، وأُعيد عليه ما أُخِذ منه . ثم إن السلطان ملكشاه سيّر سلار كرد في عسكر، إلى الحلة ، فدخلها فسار إليه مسعود بلال شحنة بغداد وأظهر له الإتفاق معه فلما اجتمعا، قبض عليه مسعود بلال ، وغرقه ، واستبد بالحلة، فلمّا علم الخليفة ذلك جهز العساكر إليه ، مع عون الدين بن هبيرة، فسار إليه ، فلما قاربوا الحلة ، عبر مسعود بلاد الفرات إليهم ، وقاتلهم ، فانهزم من عسكر الخليفة، ونادى أهل الحلة بشاعر الخليفة، فلم يدخلها ، وتمت الهزيمة عليه ، وعلى أصحابه ، فعاد إلى تكريت ، وملك عسكر الخليفة الحلة، وسير

الوزير عسكراً إلى الكوفة، وعسكراً إلى واسط ، فملكوها، ثم ان عساكر السلطان وصلت إِلى واسط ، ففارقها عسكر الخليفة، فلما سمع الخليفة ذلك ، تجهز بنفسه ، وسار عن بغداد الى واسط ، ففارقها العسكر السلطاني ، وملكها الخليفة، وسار منها إلى الحلة، ثم عاد إلى بغداد فوصلها تاسع عشر ذي القعدة، وكانت غيبته خمسة وعشرين يوماً .

ثم ان خاص بك بن بلنكري قبض على الملك ملكشاه الذي خطب له بالسلطة بعد مسعود، وأرسل إلى أخيه الملك محمد، سنة ثمان وأربعين ، وهو بخوزستان ، يستدعيه ، وكان قصده أن يحضر عنده ، فيقبضه ،ويخطب لنفسه بالسلطنة، فسار الملك محمداً إليه ، فلمّا وصل ، أجلسه على تخت السلطنة، أوائل صفر، وخطب له بالسلطنة، وخدمه ، وبالغ في خدمته ، وحمل له هدايا عظيمة ، جليلة المقدار، ثم إنّه دخل إلى الملك محمد ، ثاني يوم وصوله ، فقتله محمد ، وقتل معه زنكي الجاندار، وألقى برأسهما، فتفرق أصحابهما، ولم ينتطح فيهما عنزان ، وكان أيدغدي التركماني ، المعروف بشملة مع خاص بك ، فنهاه عن الدخول الى الملك محمد، فلم ينتبه فَقُتِلَ ونجا شملة، فنهب جشير الملك محمد، ومض طالباً خوزستان ، وأخذ محمد من أموال خاص بك شيئاً كثيراً ، واستقر محمد في السلطنة ، وتمكن وبقي خاص بك ملقىً حتى أكلته الكلاب ، وكان صبياً تركمانياً اتصل بالسلطان مسعود، فتقدم على سائر الأمراء ، ثم كان هذا خاتمة أمره .

ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج

في هذه السنة ، تجمعت الفرنج وحشدت الفارس ، والراجل ، وساروا نحو نور الدين ، وهو ببلاد جوسلين ، ليمنعوه عن ملكها . فوصلوا إليه وهو بدلوك ، فلقا قربوا منه ، رجع إليهم ، ولقيهم ، وجرى المصاف بينهم عند دلوك ، واقتتلوا أشدّ قتالٍ رآه الناس ، وصبر الفريقان ، ثم انهزم الفرنج ، وقُتِلَ منهم وأُسِرَ كثيرٌ وعاد نور الدين إلى دلوك ، فملكها واستولى عليها، ومما قيل في ذلك :

ㄱ أعدت بعصركَ هذا الأنيقِ   فتوحَ النبي وأعصارَها
ㄴ فواطأتَ يا حبذا أحدبها   وأسررت مِنْ بدرٍ ، أبدارَها
ㄷ وكانَ مهاجرُها تابعيك ،   وأنصَارُ رأيك أنصارُها
ㄹ فجدّدت إسلامَ سلمانِها   وعمر جدك عمارَها
ㅁ وما يوم أنب إلا كذاك   بل طال بالنوع ، أشبارَها
ㅂ صدمت عزيمتها صدمة   أذابت مع الماء، أحجارَها
ㅅ وفي تل باشر باشرتَهُمْ   بزحفٍ تسور أسوارَها

٥ وإن دالكتهم دلوك ، فقد   شددتَ فصدقت أخبارُها

ذكر الحرب بين سنجر والغورية

في هذه السنة كان بين السلطان سنجر وبين الغورية حرب ، وكانت دولتهم أول ما قد ظهرت ، وأول مَنْ ملك منهم رجلٌ اسمه ، الحسين بن الحسين ، ملك جبال الغور، ومدينة فيروزكوه ، وهي تقارب أعمال غزنة ، وقوي أمره وتلقب بعلاء الدين وتعرض إلى أعمال ، ثم جمع جيشاً، وقصد هراة محاصراً لها فنهب عسكره ناب وأوبة، ومارباد، من هراة الرود، وسار إلى بلْخ وحصرها، فقاتله الأمير قماج ، ومعه جمعٌ من الغز، فغدروا به ، وصاروا مع الغوري ، فملك بلْخ ، فلما سمع السلطان سنجر، بذلك سار إليه ليمنعه ، فثبت له علاء الدين ، واقتتلوا ، فانهزم الغورية، وأُسِر علاء الدين ، وقُتِل مِن الغورية ، خلقٌ كثير، ولا سيما الرّجالة، وأحضر السلطان سنجر علاء الدين بين يديه ، وقال له : يا حسين لو ظفرت بي ما كنت تفعل ، فأخرج له قيد فضة، وقال : كنت أقيدك بهذا ، وأحملك إلى فيروزكوه ، فخلع عليه سنجر ورده إلى فيروزكوه ، فبقي بها مدة ، ثم إنه قصد غزنة، وملكها حينئذ . بهرام شاه بن مسعود بن محمود بن سبكتكين ، فلم يثبت بها بين يدي علاء الدين ، بل فارقها إلى مدينة كرمان ، وهي مدينة بين غزنة والهند، وسكانها قوم يقال لهم أبغان ، وليست هذه بالولاية المعروفة بكرمان ، فلما فارق بهرام شاه غزنة ، ملكها علاء الدين الغوري ، وأحسن السيرة في أهلها، واستعمل عليهم أخاه سيف الدين ،وأجلسه على تخت المملكة، وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين بعده ، ثم عاد علاء الدين الى بلد الغور، وأمر أخاه أن يخلع على أعيان البلد خلعاً نفيسةً، ويصلهم بصلاتٍ سنية، ففعل ذلك ، وأحسن إليهم ، فلما جاء الشتاء، ووقع الثلج وعلم أهل غزنة ، أن الطريق قد انقطع إليهم ، فكاتبوا بهرام شاه ، الذي كان صاحبها، واستدعوه إليهم ، فسار نحوهم في عسكره ، فلما قارب البلد، ثار أهله على سيف الدين ، فأخذوه بغير قتال ، وكان العلويين هم الذين تولوا أسره ، وانهزم الذين كانوا معه ، فمنهم من نجا، ومنهم من أُخِذ، ثم إنهم سودوا وجه سيف الدين ، وأركبوه بقرةً، وأطافوا به البلد، ثم صلبوه وقالوا فيه أشعاراً يهجونه ،

وغنوا بها حتى النساء، فلما بلغ الخبر إلى أخيه علاء الدين الحسين ، قال شعراً معناه : إن لم أقلع غزنة في مرة واحدة، فلست الحسين بن الحسين ، ثم توفي بهرام شاه ة وملك بعده ابنه خسروشاه ، وتجهز علاء الدين الحسين ، وسار الى غزنة سنة خمسين وخمسمائة، فلما بلغ الخبر إِلى خسروشاه ، سار عنها إلى لهاوور، وملكها علاء الدين ، ونهبها ثلاثة أيام ، وأخذ

العلويين الذين أسروا أخاه ، فألقاهم مِنْ رؤوس الجبال ، وخرب المحلة التي صلب فيها، وأخذ النساء اللواتي قيل عنهن أنهن كن يغنين بهجاء أخيه والغورية، فأدخلهن حماما ومنعهن من الخروج ، حتى متن فيه ، وأقام بغزنة حتى أصلحها، ثمِ عاد إلى فيروزكوه ، ونقل معه من أهل غزنة خلقاً كثيرأ، وحمّلهم المخالي مملوءة تراباَ، فبنى به قلعةً في فيروزكوه – وهي موجودة إلى الآن – وتلقب بالسلطان المعظّم ، وحمل الخبر على عادة السلاطين السلجوقية .

وقد تقدم سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، من أخبارهم وفيه مخالفة لهذا في بعض الأمر، وكلا سمعناه ورأيناه ، في مصنفاتهم ، فلهذا ذكرنا الأمرين ، وأقام الحسين على ذلك مدة، واستعمل ابني اخيه ، وهما غياث الدين وشهاب الدين.

ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين

لما قوي أمر عمهما علاء الدين الحسين بن الحسين ، استعمل العمال والأمراء

على البلاد، وكان ابنا أخيه ، وهما غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام وشهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام ، فيمن استعمل على بلد من بلاد الغور، اسمه سنجة، وكان غياث الدين يلقب ، حينئذ، شمس الدين ، ويلقب الآخر شهاب الدين ، فلما استعملهما أحسنا السيرة ، في عملهما وعدلا، وبذلا الأموال ، فمال الناس إليهما، وانتشر ذكرهما فسعى بهما ، من يحسدهما إلى عمهما علاء الدين ، وقال : إنهما يريدان الوثوب بك ، وقَتْلك ، والاستيلاء على الملك ، فأرسل عمهما يستدعيهما إليه ، فامتنعا، وكانا قد علما الخبر، فلفا امتنعا جهز اليهما عسكرا ،مع قائد يسمى خروش الغوري ، فلما التقوا، انهزم خروش ومن معه ، وأُسِرَ هو، وأبقيا عليه ، وأحسنا إليه ، وخلعا عليه وأظهرا عصيان عمهما وقطعا خطبته ، فتوجه إليهما علاء الدين ، وسارا هما ايضا إليه فالتقوا ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم علاء الدين ، وأُخِذَ اسيراً ، وانهزم عسكره ،فنادى فيهم ابنا أخيه بالامان ، فأحضرا عمهما، وأجلساه على التخت ، ووقفا في خدمته ، فبكى علاء الدين ،

وقال : هذان صبيان قد فعلا، ما لو قدرت عليه منهما، لم أفعله ، وأحضر القاضي في الحال ، وزوج غياث الدين بنتاً له ، وجعله ولي عهده ، وبقي كذلك إلى أن مات . فلما توفي ملك غياث الدين بعده ، وخطب لنفسه في الغور، وغزنة بالملك ، وبقي كذلك إلى أن ملك الغز غزنة، بعد موت علاء الدين ، طمعوا فيها

بموته ، وبقيت بأيديهم خمس عشر سنة، يصبون على أهلها العذاب ، ويتابعون الظلم ، كعادتهم ، في كل بلدة ملكوها، ولو أنهم لمّا ملكوا ، أحسنوا السيرة في الرعايا ، لدام ملكهم ، فلم يزل الغز بغزنة هذه المدة، وغياث الدين يقوي أمره ، ويحسن السيرة، والناس يميلون إليه ، ويقصدونه محبة له.

ذكر ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد

لما قوي أمر غياث الدين ، جهز جيشاً كثيفاً مع اخيه شهاب الدين إلى غزنة، فيه اصناف الغورية والخلج والخراسانية ، فساروا إِليها فلقيهم الغز، وقاتلوهم ، فانهزم الغورية وثبت شهاب الدين ، فيمن ثبت معه ، على صاحب علمهم ، فقلته ، وأخذ العلم وتركه على حاله ، فتراجع الغز، ولم يكونوا علموا بما كان من شهاب الدين ، فجاؤوا يطلبون عملهم ، فكلما جاء إليه طائفة قتلهم ، فأتى على أكثرهم ، ودخل غزنة، وتسلمها، وأحسن السيرة في أهلها، وأفاض العدل ، وسار من غزنة إلى كرمان وشنوران ، فملكها، ثم تعدى إلى ماء السند، وعمل على العبور إلى بلد الهند، وقصد لها ، وورد بها ، يومئذ ، خسروشاه بن بهرام شاه – المقدم ذكر والده – فلما سمع خسروشاه بذلك ، سار فيمن معه إلى ماء السند، فمنعه من العبور، فرجع عنه وقصد خرشابور، فملكها وما يليها من جبال الهند وأعمال الابغان ، والله أعلم .

ذكر ملك شهاب الدين لهاوور

لما ملك شهاب الدين جبال الهند، قوي أمره وجنانه ، وعظُمت هيبته في قلوب

الناس ، وأحبوه لحسن سيرته ، فلما خرج الشتاء وأقبل الربيع ، من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، سار نحو لهاوور في جمع عظيم ، وحشد كثير، من خراسان والغور وغيرها ، فعبر إلى لهاوور، وحصرها ، وأرسل صاحبها خسروشاه إلى أهلها يتهددهم إن منعوه ، وأعلمهم أنه لا يزول حتى يملك البلد، وبذل لخسروشاه الأمان على نفسه ، وأهله ، وماله ، ومن الأقطاع ما أراد، وأن يزوج ابنته بابن خسروشاه ، على أن

يطأ بساطه ، ويخطب لأخيه ، فامتنع عليه ، وأقام شهاب الدين محاصراً له ، مضيقاً عليه ، فلما رأى أهل البلد والعسكر ذلك ، ضَعُفَت نياتهم في نصرة صاحبهم ، فخذلوه ، فأرسل لَما رأى ذلك - قاضي البلد، والخطيب ، يطلبون له الأمان ، فأجابه شهاب الدين إِلى ذلك ، وحلف له وخرج إليه ، ودخل الغورية إلى المدينة، وبقي كذلك شهرين مكرماً عند

شهاب الدين ، فورد رسول من غياث الدين إلى شهاب الدين ، يأمره بإنفاذ خسروشاه إليه .

ذكر انقراض دولة سبكتكين

لما أنفذ غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين ، يطلب إنفاذ خسروشاه إليه ، أمره شهاب الدين بالتجهز والمسير، فقال : أنا لا أعرف أخاك ، ولا لي حديث إلا معك ، ولا يمين إلا في عنقك ، فمناه ، وطيب قلبه ، وجهزه ، وسيره ، وسير معه ولده ، وأصحبهما جيشاً يحفظونهما ، فسارا كارهين ، فلما بلغا فرشابور خرج أهلها إليهما ، يبكون ، ويدعون لهما،فزجرهم الموكلون بهما، وقالوا سلطان يزور سلطانا آخر، لأي شيء تبكون ، وضربوهم ، فعادوا، وخرج ولد خطيبها إلى خسروشاه متوجعاً، له قال : فلما دخلتُ عليه ، أعلمته رسالة أبي ، وقلت إنه قد اعتزل الخطابة ولا حاجة بي إلى خدمة غيركم فقال لي : سلم عليه ، وأعطاني فرجة فوطاً ومصلى من عمل الصوفية، وقال هذه تذكرة أبيك عند أبي ، فسلمها إليه ، وقل له در مع الدهر كيفما دار، أنشد بلسان فصيح :

¬ وليس كعهدِ الدار يا أمَّ مالكٍ ولكنْ أحاطَتْ بالرقابِ السلاسِلِ

قال : فانصرفت إلى أبي ، وعرّفته الحال ، فبكى ، وقال : قد أيقن الرجل بالهلاك ،ثم رحلوا، فلما بلغوا بلد الغور، لم يجتمع بهما غياث الدين ، بل أمر بهما فرفعا، إلى بعض القلاع ، فكان آخر العهد بهما ، وهو آخر ملوك آل سبكتكين ، وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلاثمائة، فتكون مدة ولايتهم مائتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريباً، وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة، ولا سيما جدهم محمود، فإن آثاره في الجهاد معروفة ، وأعماله للآخرة مشهورة :

¬ لوْ كانَ يقعدُ فوقَ الشمسِ مِنْ كرمٍ قومٍ بآبائِهِمْ أوْ مجدِهِمْ قَعَدُوا

فتبارك الذي لا يزول ملكه ، ولا تغيره الدهور، فأف لهذه الدهور، وأف لهذه الدنيا الدنية، تفعل هذا بأبنائها، نسأل الله تعالى أنْ يكشف

عن قلوبنا، حتى نراها بعين الحقيقة، وأنْ يقبل بنا إليه ، وأن يشغلنا به عما سواه ، إنه على كل شيء قدير، هكذا ذكر بقض فضلاء خراسان : أن خسروشاه ، آخر ملوك آل سبكتكين ، وقد ذكر غيره ، أنه توفي في الملك ، وملك بعده ابنه ملكشاه ، وسنذكره في سنة تسع وخمسين وخمسمائة،

وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندي فيها خلف ، لو ينكشف الحق ، فأصلحه إن شاء الله تعالى .

ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة

لما استقر ملكهم بلهاوور ، واتسعت مملكتهم ، وكَثُرت عساكرهم وأموا لهم ، كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة، وتلقب بألقاب السلاطين ، كان لقبه شمس الدين ، فتلقب غياث الدين والدنيا معين الِإسلام قسيم أمير المؤمنين ولقب أخاه بعز الدين ، ففعل شهاب الدين ذلك ، وخطب له بالسلطنة .

ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان

لما فرغ شهاب الدين مِنْ إصلاح أمر لهاوور، وتقرير قواعدها، سار إلى أخيه غياث الدين ، فلما اجتمع به ، استقر رأيهما على المسير إلى خراسان ، وقصد مدينة هراة، ومحاصرتها، فسارا في العساكر الكثيرة اليها، وكان بها جماعة من الأتراك السنجرية ، فنازلا البلد ، وحصراه وضيّقا ، على من به ، فاستسلموا اليهما، وأرسلوا يطلبون الأمان منهما فأجاباهم إلى ذلك ، وأمناهم ، فتسلما البلد، وأخرجا من فيه من الأمراء السنجرية ، واستناب فيه غياث الدين خزنك الغوري ، وسار غياث الدين وأخوه إلى فوشنج ، فملكاها ، ثم إلى باذغيس ، وكالين ، وبيوار، فملكاها ، أيضا ، وتسلم ذلك جميعه غياث الدين ، وأحسن السيرة في أهل البلاد ، ورجع إلى فيروزكوه ، ورجع شهاب الدين إلى غزنة وكان ينبغي أن حوادث الغورية تذكر في السنين ، وإنما جمعناها ليتلو بعضها بعضاً، ولأن فيه ما لم يعرف تاريخه ، فتركناه بحاله .

ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلد الهند

لما رجع شهاب الدين من خراسان إلى غزنة، أقام بها حتى أراح واستراح ، هو وعساكره ،ثم سار إلى بلد الهند، فحاصر مدينة آجرة، وبها ملك من ملوك الهند، فلم يظفر منه بطائل ظ وكان للهندي زوجة غالبة على أمره ، فراسلها شهاب الدين أنه يتزوجها، فأعادت الجواب أنها لا تصلح له ،وانها لها ابنة جميلة تزوجه إياها ، فأرسل إليها يجيبها إلى التزويج بابنتها، فسقت زوجها سماً ، فمات ، وسلمت البلد إليه ،

فلما تسلمه ، أخذ الصبية ، فأسلمت ، وتزوجها ، وحملها إلى غزنة ، وأجرى عليها الجرايات الوافرة ،

ووكل بها من علمها القران وتشاغل عنها، فتوفيت والدتها، ثم توفيت هي بعد عشر سنين ، ولم يرها ، ولم يقربها ، فبنى لها مشهداً ، ودفنها فيه ، وأهل غزنة يزورون قبرها ، ثم عاد إلى بلد الهند فذل له صابها، وتيسر له فتح الكثير، من بلادهم ، ودوخ ملوكهم ، وبلغ منهم ما لم يبلغه أحد قبله من ملوك المسلمين .

ذكر ظفر الهند على المسلمين

لما اشتدّت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند، وإثخانه في أهلها، واستيلاؤه عليهم ، اجتمع ملوكهم ، وتآمروا بينهم ، ووبّخ بعضهم بعضاً، فاتفق رأبهم على الاجتماع ، والتعاضد على حربه ، فجمعوا عساكرهم ، وحشدوا ،وأقبل إليهم الهنود من كل فج عميق ، على الصعب والذلول ، وجاؤوا بحدهم ، وحديدهم ، وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة، هي ، من أكبر ملوكهم ،فلما سمع باجماعهم ،ومسيرهم إليه ، تقدم ، هو أيضاً، إليهم في عسكر عظيم ، من الغورية والخلج ، والخراسانية ، فالتقوْا واقتتلوا فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون ، وركبهم الهند يقتلون ، ويأسرون ، وأثخنوا فيهم ، وأصاب شهاب الدين ضربة ، بطلت منها يده اليسرى، وضربة أخرى على رأسه سقط منها إلى الأرض ، وحجز الليل بين الفريقين ، فأحس شهاب الدين بجماعة من غلمانه الأتراك ، في ظلمة الليل ، وهم يطلبونه في القتلى ، ويبكون ، وقد رجع الهنود إلى ورائهم ، فكلمهم ، وهو على ما به من الجهد، فجاؤوا إليه مسرعين ، وحملوه على رؤوسهم رجّالة ، يتناوبون حمله ، حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح وشاع خبر سلامته في الناس ، فجاؤوا إليه يهنئونه من أقطار البلاد فأوّل ما عمل أنه أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه ، وأسلموه ، فملأ مخالي خيلهم شعيراً ، وحلف لئن لم يأكلوه ، ليضربن أعناقهم ، فأكلوه ضرورةً، وبِلغ الخبر إلى أخيه غياث الدين فأرسل إليه يلومه على عجلته وإقدامه ، وأنفذ إليه جيشاَ عظيماً .

ذكر ظفر المسلمين بالهند

لما سلم شهاب الدين ، وصاد إلى آجرة : وأتاه المدد من أخيه غياث الدين ، وعاد الهنود ، جددوا سلاحهم ، ووفروا جمعهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، وسارت ملكتهم وهم معها في عدد يضيق عنه الفضاء، فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنه يتزوجها ، فلم تجبه إلى ذلك ، وقالت : إما الحرب ، وإما أن تسلم بلاد الهند وتعود إلى

غزنة ، فأجابها إلى العود إلى غزنة ، وأنه يستأذن أخاه غياث الدين . فعل ذلك مكراً وخديعة . وكان بين العسكرين نهرٌ ، وقد حفظ الهنود المخاضات ، فلا يقدر أحد من المسلمين أن يجوزه ، وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين ، بزعمهم ، فبينما هم كذلك ، إذ وصل إِنسان هندي إلى شهاب الدين ، وأعلمه أنه يعرف مخاضاً قريباً من عسكر الهنود، وطلب أن يرسل معه جيشاً يعبرهم المخاض ، ويكبسون الهنود ، وهم غارون آمنون ، فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكراً ، فأقام له ضمناء من أهل آجرة والمولتان ، فأرسل معه جيشاً، كثيفاً، وجعل عليهم الأمير الحسين ابن خرميل الغوري – وهو الذي صار بعد صاحب هراة – وكان مني الشجاعة والرأي بالمنزلة المشهورة، فسار الجيش مع الهندي ، فعبروا النهر، فلم يشعر الهنود إلا وقد خالطهم المسلمون ، ووضعوا السيف فيهم فاشتغل الموكلون بحفظ المخاضات ، فعبر شهاب الدين ، وباقي العساكر، وأحاطوا بالهنود ، وأكثروا القتل فيهم ، ونادوا بشعار الاسلام ، فلم ينج من الهنود إِلا من عجز المسلمون عن قتله ، وأسره ، وقُتِلَت ملكتهم ، وتمكن شهاب الدين – بعد هذه الوقعة – من بلاد الهند ، وأمن معرة فسادهم ، والتزموا له بالأموال ، وسلموا إليه الرهائن ، وصالحوه ، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلي ، وهي كرسي الممالك التي فتحها من الهند، فأرسل عسكراً من الخلج مع محمد بن بختيار، فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل اليها مسلم قبله ، حتى قاربوا حدود الصين ، من جهة المشرق ، وقد حدثني صديق لي من التجار بوقعتين ، تشبه هاتين الوقعتين المذكورتين ، وبينهما بعض الخلاف ، وقد ذكرناهما سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، توفي يعقوب الكاتب ببغداد، وكان يسكن بالمدرسة النظامية، وحضر متولي التركات ، وختم على الغرفة التي كان يسكنها بالمدرسة، فثار الفقهاء، وضربوا المتولي ، وهذه عادتهم فيمن يموت بها ، وليس له وارث ، فقبض حاجب الباب على رجلين من

الفقهاء، وعاقبهما، وحبسهما فأغلق الفقهاء المدرسة، وألقوا كرسي الوعاظ في الطريق ، وصعدوا سطح المدرسة ليلاً، واستغاثوا وتركوا الأدب ، وكان حينئذ مدرسهم الشيخ أبا النجيب ، فجاء وألقى نفسه تحت التاج يعتذر، فعُفي عنه .

وفيها ، توفي حسام الدين تمرتاش ، صاحب ماردين وميافارقين ، وكانت ولايته نيفا وثلاثين سنة، وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبي .

وقيها، مات أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرموي الشافعي المحدث ، ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة .

وفيها، توفي أبو الأسعد عبد الرحمن القشيري ، في شوال ، وهو شيخ شيوخ خراسان .

وفيها في المحرم ، باض ديك ببغداد بيضة ، وباض بازي بيضتين وباضت نعامة لا ذكر معها بيضة .

ثم دخلت سنة ثمان
وأربعين وخمسمائة
ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان
وما كان منهم

في هذه السنة ، في المحرم ، انهزم السلطان سنجر من الأتراك الغز، وهم طائفة من الترك ، مسلمون ، كانوا بما وراء النهر، فلما ملك الخطا، أخرجوهم منه –كما ذكرنا – فقصدوا خراسان ، وكانوا خلقاً كثيراً ، فأقاموا بنواحي بلْخ ، يرعون في مراعيها ، وكان لهم أمراء ، إسم أحدهم دينار، والآخر بختيار، والآخر طوطي ، والآخر أرسلان ، والآخر جفز، والآخر محمود ، فأراد الأمير قماج ، وهو مقطع بلْخ ، إبعادهم ، فصانعوه بشيء بذلوه له ، فعاد عنهم فأقاموا على حالة حسنة ، لا يؤذون أحداً ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ثم إن قماج عاودهم ، وأمرهم بالانتقال عن بلده ، فامتنعوا ، وانضم بعضهم إلى بعض ، واجتمع معهم غيرهم ، من طوائف الترك ، فسار قماج إليهم في عشرة آلاف فارس ، فجاء إليه أمراؤهم ، وسألوه أن يكفّ عنهم ، ويتركهم في مراعيهم ، ويعطونه من كل بيت مائتي درهم ، فلم يجبهم إلى ذلك ، وشدد عليهم في الانتزاح ، عن بلده ، فعادوا عنه ، واجتمعوا ، وقاتلوه فانهزم قماج ، ونهبوا ماله ، ومال عسكره ، وأكثروا القتل في العسكر والرعايا ، واسترقوا النساء والأطفال ، وعملوا كل عظيمة، وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس ، وانتهت الهزيمة بقماج إلى مرو، وبها السلطان سنجر، فأعلمه الحال ، فراسلهم سنجر يتهددهم ، فأمرهم بمفارقة بلاده ، فاعتذروا وبذلوا بذلًا كثيراً ليكف عنهم ، ويتركهم ، في مراعيهم ، فلم يجبهم إلى ذلك ، وجمع عساكره من أطراف البلاد ، واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس ، وقصدهم ، ووقِع بينهم حرب شديد ، فانهزمت عساكر سنجر، وانهزم هو ايضا ، وتبعهم الغز قتلاً وأسراَ ، فصار قتلى العسكر كالتلال . وقُتِل علاء الدين قماج ، وَأُسِر السلطان سنجر، وأسِر معه جماعة من الأمراء ، فأما الأمراء فضربوا أعناقهم ، وأما السلطان سنجر فإن

أمراء الغز اجتمعوا، وقبلوا الأرض بين يديه ، وقالوا نحن . عبيدك ، لا نخرج عن طاعتك ، فقد علمنا أنك لم ترد قتالنا ، وإنما حملت عليه ، فأنت السلطان ، ونحن العبيد فمض على ذلك شهران ، أو ثلاثة ، ودخلوا معه إلى مرْو، وهي كرسي ملك خراسان ، وطلبها منه بختيار اقطاعاً ، فقال السلطان : هذا دار الملك ، ولا يجوز أن تكون أقطاعاً لأحد، فضحكوا منه ، وحنق له بختيار بغمه ، فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ، ودخل خانكاه مرْو، وتاب عن الملك ، واستولى الغز على البلاد ، وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله ، وولوا على نيسابور والياً، فقسط على الناس كثيراً، وعسفهم ، وضربهم ، وعلق في الأسواق ثلاثة غرائر، وقال أريد ملء هذه ذهباً ، فثار عليه العامة ، فقتلوه ومن معه ، فركب الغز، ودخلوا نيسابور، ونهبوها نهباً مجحفاً، وجعلوها قاعاً صفصفاً، وقتلوا الكبار والصغار، وأ. حرقوا ، وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها ، فممن قُتِل الحسين بن محمد الأرسابندي ، والقاضي علي بن مسعود، والشيخ محمي الدين محمد بن يحيى ، وأكثر الشعراء في مرائي محمد بن يحيى ، فممن قال فيه علي ابن إبراهيم الكاتب :

مضى الذي كان يُجني الدُّرَّ منْ فيهِ   يسيلُ بالفضْلِ والإفضالِ واديه

مضى ابن يحيى الذي قدْ كان صوب حيا   لابر شهر ومصباحاً لداجيهِ

خلا خراسان مِنْ علمٍ ومِن ورعٍ   لمّا نعاهُ إلى الآفاق ناعيهِ

لما أماتوه ، مات الدين ، وا أسفاً   منْ ذا الّذي ، بعد محيي الدين ، يحييهِ

ويتعذر وصف ما جرى منهم بتلك البلاد جميعا، ولم يسلم من خراسان شيء لم تنهبه الغز، غير هراة ودهستان ، لأنها كانت حصينة ، فامتنعت .

وقد ذكر بعض مؤرخي خراسان من أخبارهم ما فيه زيادة وضوح ، وقال : إن هؤلاء الغز قوم انتقلوا من نواحي الثغر، من اقاصي الترك ، إلى ما وراء النهر، في أيام المهدي ، وأسلموا ،واستنصر بهم المقنع ، صاحب المخاريق الشعبذة ، حتى تم أمره ، فلما سارت العساكر إليه ، خذله هؤلاء الغز،وأسلموه ،وهذه عادتهم في كل دولة كانوا فيها ، وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخاقانية ، إلا أن الأتراك القارغلية قمعوهم وطردوهم من أوطانهم ، فدعاهم الأمير زنكي بن خليفة الشيباني ، المستولي على حدود طخارستان ، إليه وأنزلهم بلاده ، وكانت بينه وبين الأمير قماج عداوة ، أحكمتها الأيام

للمجاورة التي بينهما، وكل منهما يريد أن يعلو على الآخر، ويحكم عليه ، فتقوى بهم زنكي ، وساروا معه إلى بلْخ ، لمحاربة قماج ، فكاتبهم قماج ، فمالوا إليه ، وخذلوا زنكي عند الحرب ، فأُخِذَ زنكي وابنه أسيرين ، فقَتَلَ قماج ابن زنكي ، وجعل يطعم أباه لحمه ، ثم قتل الأب أيضاً . وأقطع قماج الغز مواضع ، وأباحهم مراعي بلاده . فلما قام الحسين بن الحسين الغوري ، وقصد بلخ ، خرج إليه قماج وعساكره ، ومعه الغز، ففارقه الغز، وانضموا إلى الغوري حتى ملك مدينة بلْخ ، فسار السلطان سنجر إلى بلْخ ، ففارقها الغوري بعد قتال انهزم منه ، ثم دخل إلى السلطان سنجر، لعجزه عن مقاومته ، فرده إلى غزنة، وبقي الغز بنواحي طخارستان ، وفي نفس قماج منهم الغيظ العظيم لما فنلوه معه ، فأراد صرفهم عن بلاده ، فتجمعوا، وانضم إليهم طوائف من الترك ، وقدموا عليهم أرس للان موقا ، التركي ، فجمع أرسلان قماج عسكره ، ولقيهم فاقتتلوا يوما كاملًا إلى الليل ، فانهزم قماج وعسكره ، وأَسِرَ هو وابنه أبو بكر، فقتلوهما ، واستولوا على نواحي بلْخ ، وعاثوا فيها وأفسدوا بالنهب والقتل والسلب .

وبلغ السلطان سنجر الخبر، فجمع عساكره وسار إليهم ، فراسلوه يعتذرون، ويتنصلون فلم يقبل عذرهم ، ووصل إليهم مقدمة السلطان ،وفيها محمد بن أبي بكر بن قماج المقتول ، والمؤيد أي أبه في المحرم ، من سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ووصل بعدهم السلطان سنجر، فالتقاه الغز بعد أن أرسلوا يعتذرون ، ويبذلون الأموال ، والطاعة، والانقياد، إلى كل ما يؤمرون به ، فلم يقبل سنجر ذلك منهم ، وسار إليهم فلقوه ، وقاتلوه وصبروا له ، ودام قتالهم فانهزم عسكر سنجر، وهو معهم ، فتوجهوا إلى بلخ على أقبح صورة، ،وتبعهم الغز واقتتلوا مرة ثانية، فانهزم السلطان سنجر أيضاً، ومض منهزما إلى مرْو في صفر، من السنة، فقصد الغز، إليها، فلما سمع العسكر الخراساني بقربهم منهم ، أجفلوا من بين أيديهم هاربين ، لما دخل في قلوبهم من خوفهم والرعب منهم ، فلما فارقها السلطان والعسكر، دخلها الغز ونهبوها أفحش نهب ، وأقبحه ، وذلك في جمادى الأولى، من

السنة، وقُتِل بها كثير من أهلها، وأعيانها، منهم قاضي القضاة الحسن بن محمد الأرسابندي ، والقاضي علي بن مسعود، وغيرهما من الأئمة العلماء ، ولما خرج سنجر من مرْو، قصد بوزابة، وأخذه الغز أسيراً ، وأجلسوه ، على تخت السلطنة، على عادته ، وقاموا بين يديه ، وبذلوا له الطاعة، ثم عاودوا الغارة على مرْو ، في رجب من السنة، فمنعهم أهلها، وقاتلوهم

قتالاً شديداً ، بذلوا فيه جهدهم ، وطاقتهم ، ثم إنهم عجزوا فاستسلموا إليهم ، فنهبوها أقْبح من النهب الأول لم يتركوا بها شيئاً، وكان قد فارق سنجر جميع أمراء خراسان ، ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ، ولم يبق عنده غير نفر يسير من خواصه وخدمه ، فلما وصلوا إلى نيسابور، أحضروا الملك سليمان شاه بن السلطان محمود، فوصل إلى نيسابور، تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة، فاجتمعوا عليه ، وخطبوا له بالسلطنة.

وسار في هذا الشهر جماعة من العسكر السلطاني إلى طائفة كثيرة من الغز ، فوقعوا بهم ، وقتلوا منهم كثيراً، وانهزم الباقون إلى أمرائهم الغزية، فاجتمعوا معهم ، ولما اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه ، وساروا إلى مرْو، يطلبون الغز، فبرز الغز إليهم ، فساعة رآهم العسكر الخراساني انهزموا ، وولوا على أدبارهم ، وقصدوا نيسابور، وتبعهم الغز، فمروا بطوس ، وهي معدن العلماء والزهاد، فنهبوها، وسبوا نساءها، وقتلوا رجالها، وخربوا مساجدها، ومساكن أهلها، ولم يسلم من جميع ولاية طوس إلا البلد الذي فيه مشهد علي بن موسى الرضا، ومواضع أخر يسيرة لها أسوار، رممن قُتِل من أعيان أهلها، إمامها محمد المارشكي ، ونقيب العلويين بها، علي الموسوي ، وخطيبها اسماعيل بن المحسن ، وشيخ شيوخها محمد بن محمد، وأفنوا من بها من الشيوخ الصالحين ، وساروا منها إلى نيسابور، فوصلوا إليها في شوال ، سنة تسع وأربعين ، ولم يجدوا دونها مانعاً ، ولا مدافعاً ، فنهبوها نهباً ذريعاً ، وقتلوا أهلها ، فأكثروا، حتى ظنوا أنهم لم يبقوا بها أحد، حتى أنه أحصِي في محلتين خمسة عشر ألف قتيل من الرجال ، دون النساء والصبيان ، وسبوْا نساءها، وأطفالها، وأخذوا أموالها ، وبقي القتلى في الدروب ، كالتلال ، بعضهم فوق بعض ، واجتمع أكثر أهلها بالجامع المنبعي ، تحصنوا به فحصرهم الغز، فعجز أهل نيسابور من منعهم ، فدخل الغز إليهم ، فقتلوهم عن آخرهم ، وكانوا يطلبون من الرجال المال ، فإذا أعطاهم أحد قتلوه ، وقتلوا كثيراً من أئمة العلماء والصالحين ، منهم محمد بن يحيى الفقيه

الشافعيِ الذي لم يكن في زمانه مثله ، كان رحلة الناس من أقصى الغرب والشرق إليه ، ورثاه جماعةٌ من العلماء منهم ، أبو الحسن علي بن أبي القاسم البيهقي فقال :

يا سافكاً دمَ عالمٍ متبحرِ قد طار في أقْصى الممالكِ صيتُهُ

باللهِ قلْ لي يا ظلوم ولا تخفْ مَنْ كان محيى الدين كيفَ تميتهُ ؟

منهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الأكاف ، وأحمد بن الحسين الكاتب

سبط القشيري ، وأبو البركات الفراوي ، والإمام علي الصباغ ، المتكلم ، وأحمد بن محمد بن حامد، وعبد الوهاب المقاباذي ، والقاضي صاعد بن عبد الملك بن صاعد، والحسن بن عبد الحميد الرازي ، وخلق كثير من الأئمة، والزهاد والصالحين ، وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب ، ولم يسلم إلا بعضها، وحصروا شارستان ، وهي منيعة ، فأحاطوا بها ، وقاتلهم أهلها من فوق سورها ، وقصدوا جوين ، وبذلوا نفوسهم لله تعالى ، وأحموا بيضتهم والباقي أتى النهب ، والقتل عليه ، ثم قصدوا اسفراين ، فنهبوها، وخربوها ، وقتلوا في أهلها ، فأكثروا ، وممن قُتِلَ عبد الرشيد الأشعثي ، وكان من أعيان دولة السلطان ، فتركها، وأقبل على الاشتغال بالعلم ، وطلب الآخرة، وأبو الحسن الفندورجي ، وكان من ذوي الفضائل لا سيما في علم الأدب .

لما فرغ الغز من جوين واسفراين عادوا إلى نيسابور، فنهبوا ما بقي فيها بعد النهب الأول ، وكان قد لحق بشهرستان كثير من أهلها، فحصرهم الغز، واستولوا عليها، ونهبوا ما كان فيها لأهلها ولأهل نيسابور، وهتكوا الحرم والأطفال ، وفعلوا ما لم يفعله الكفار مع المسلمين ، وكان العيارون ، أيضاً، ينهبون نيسابور أشد من نهب الغز، ويفعلون أقبح من فعلهم ، ثم إنّ السلطان سليمان شاه ضعف ، وكان قبيح السيرة ، سيء التدبير، وأنّ وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك توفي في شوال ، سنة ثمان وأربعين ، فضعف أمره ، واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام الملك أبا علي الحسن بن ظاهر، وانحلّ أمر دولته بالكلية ، ففارق خراسان في صفر، سنة تسع وأربعين ، وعاد إلى جرجان . فاجتمع الأمراء ، وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان ، وهو ابن اخت السلطان سنجر، وخطبوا له على منابر خراسان ، واستدعوه إليهم ، فملكوه أمورهم ، وانقادوا له في شوال ، سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وساروا معه إلى الغز، وهم يحاصرون هراة ، وجرت بينهم حروب ، كان الظفر في أكثرها للغز، ورحلوا في

جمادى الأولى، من سنة خمسين وخمسمائة، وسار معهم من على هراة إلى مرْو، وعاودا لصادرة لأهلها ، وسار الخان محمود بر محمد إلى نيسابور، وقد غلب عليها المؤيد – على ما نذكره – وراسل الغز في الصلح ،فاصطلحوا في رجب ، من سنة خمسين وخمسمائة ،هدنة على دخل، وسيرد باقي أخبارهم سنة اثنتين وخمسين .

ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها

كان للسلطان سنجر مملوك اسمه أي أنه ، ولقبه المؤيد ، فلما كانت هذه الفتنة تقدم ،وعلا شأنه ، وأطاعه كثير من الأمراء ، فاستولى على نيسابور، وطوس ، ونسا ، وابيورد، وشهرستان والدامغان ، وأزاح الغز عن الجميع ، وقتل منهم خلقاً كثيرأ، وأحسن السيرة ، وعدل في الرعية ، واستمال الناس ، ووفر الخراج على أهله ، وبالغ في مراعاة أرباب البيوت ، فاستقرت البلاد له ، ودانت له الرعية لحسن سيرته ، وعظُم شأنه ، وكثُرت جموعه ، فراسله خاقان محمود بن محمد في تسليم البلاد، والحضور عنده ، فامتنع ، وترددت الرسل بينهم ، حتى استقر على المؤيد مال يحمله إلى الملك محمود، فكف عنه محمود، وأقام المؤيد بالبلاد هو والسلطان محمود .

ذكر ملك ايتاخ الري

كان ايتاخ أحد مماليك السلطان سنجر، فلما كان من فتنة الغز –ما ذكرناه – هرب من خراسان ، ووصل إلى الري ، فاستولى عليها ، وأقام بها ، وأرسل السلطان محمد شاه بن محمود ، صاحب همذان ، وأصفهان ، وغيرهما ، يخدمه ، وهاداه ، وأرضاه ، وأظهر له الطاعة، وبقي بها إلى أن مات السلطان محمد، فاستولى على عدة بلاد تجاور الري ، فملكها فَعظُم أمره ، وعلا شأنه ، وصارت عساكره عشرة آلاف فارس ، فلما ملك سليمان شاه همذان – على ما نذكره – حضر عنده ، وأطاعه لأنسه به كان أيام مقام سليمان شاه بخراسان ، فتقوى أمره بذلك .

ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس

في هذه السنة ، في المحرم ، قُتِلَ العادل بن السلار وزير الظافر بالله ، قتله ربيبه عباس ابن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي ، أشار إليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ ، ووافق عليه الخليفة الظافر بالله ، فأمر ولده نصراً، فدخل على العادل ، وهو عند جدته أم عباس ، فقتله وولي الوزارة بعده ربيبه عباس ، وكان عباس قد قدم من المغرب – كما ذكرناه – إلى مصر، وتعلم الخياطة، وكان خياطاً حسناً،فلما تزوج ابن السلار بأمه ، أحبه ، وأحسن تربيته ، فجازاه بأن قتله ، وولي بعده

وكانت الوزارة في مصر لمن غلب ، والخلفاء وراء الحجاب ، والوزارة،
كالمتملكين ، وقل أن وليها أحد بعد الأفضل إلا

بحرب ، وقتل ، وما شاكل ذلك ، فلذلك ذكرناه في تراجم مفردة . والله أعلم .

ذكر الحرب بين العرب وعسكر عبد المؤمن

في هذه السنة، في صفر، كانت الحرب بين عسكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة سطيف ، وسبب ذلك : أن العرب وهم ، بنو هلال ، والأبتج ، وعدي ورياح ، وزعب ، وغيرهم ، من العرب ، لما ملك عبد المؤمن بلاد بني حماد، اجتمعوا من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب ، وقالوا : إن جاورنا عبد المؤمن ، أجلانا من المغرب ، وليس الرأي إلا إلقاء الجد معه ، وإخراجه من البلاد، قبل أن يتمكن ، وتحالفوا على التعاون والتظافر، وأن لا يخون بعضهم بعضاً ، وعزموا على لقائه بالرجال ، والأهل ، والمال ، ليقاتلوه قتال الحريم ، واتصل الخبر بالملك رجار الفرنجي ، صاحب صقلية ، فأرسل إلى أمراء العرب ، وهم محرز بن زياد، وجبارة بن كامل ، وحسن بن ثعلب ، وعيسى بن حسن ، وغيرهم ، يحثهم على لقاء عبد المؤمن ، ويعرض عليهم أنْ يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم ، على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن ، فشكروه ، وقالوا : ما بنا حاجة إلى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين ، وساروا في عدد لا يُحصى ، وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية إلى بلاد المغرب ، فلما بلغه خبرهم ، جهز من الموحدين ما يزيد على ثلاثين ألف فارس ، واستعمل عليهم عبد الله بن عمر الهنتاني ، وسعد الله بن يحيى ، وكان العرب أضعافهم ، فاستجرهم الموحدون ، وتبعهم العرب إلى أن وصلوا إلى أرض شطيف ، بين جبال ، فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن ، والعرب على غير أهبة ، التقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال ، وأعظمه ، فانجلت المعركة عن انهزام العرب ، ونصرة الموحدين ، وترك العرب جميع ما لهم من أهل ، ومال ، وأثاث ، ونعم ، فأخذ الموحدون جميع ذلك ، وعاد الجيش إلى عبد المؤمن بجميعه ، فقسم جميع الأموال على عسكره ، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط ، ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ، ويقوم بحوائجهم ، وأمر بصيانتهم ، فلما وصلوا معه إلى

مراكش ، أنزلهم في المساكن الفسيحة، وأجرى لهم النفقات الواسعة، وأمر عبد المؤمن ابنه محمداً أنْ يكاتب أمراء العرب ، ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة ، وأنه قد بذل لهم الأمان والكرامة . فلما وصل كتاب محمد إلى العرب سارعوا إلى المسير إلى مراكش ، فلما وصلوا إِليها، أعطاهم عبد المؤمن نساءهم

وأولادهم، وأحسن اليهم ، وأعطاهم أموالًا جزيلة ، فاسترقَّ قلوبهم بذلك ، وأقاموا عنده ، وكان بهم حفياً، واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد، على ما نذكره ، سنة إحدى وخمسين.

ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غليالم

في هذه السنة ، سار أسطول رجار، ملك الفرنج بصقلية ، إلى مدينة بونة ، وكان المقدم عليهم فتاه فيلب المهدوي ، فحصرها واستعان بالعرب عليها، فأخذها في رجب ، وسبى أهلها، وملك ما فيها، غير أنه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حق خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى، فأقام بها عشرة أيام ، وعاد إلى المهدية وبعض الأسرى معه ، وعاد إلى صقلية فقبض رجار عليه لما اعتمد من الرفق بالمسلمين في بونة، وكان فيلب يقال إنّه وجميع فتيانه مسلمون ، يكتمون ذلك ، وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك ، وأنّه مسلم ، فجمع له رجار الأساقفة ، والقسوس ، والرهبان ، فحكموا بأن يحرق فأُحرق في رمضان ، وهذا أول وهن دخل على المسلمين بصقلية، ولم يمهل الله رجار بعده إلا يسيراً، حتى مات في العشر الأول من ذي الحجة من السنة، وكان مرضه الخوانيق ، وكان عمره قريب ثمانين سنة، وكان ملكه نحو عشرين سنة .

ولما مات ملك بعده ابنه غليالم ، وكان فاسد التدبير، سيء التصوير فاستوزر مايو البرصاني فأساء التدبير، فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية وبلاد قلورية ، وتعدى الأمر إلى أفريقية ، على ما نذكره .

ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة

في هذه السنة، في رجب ، توفي السلطان بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود ابن محمود بن سبكتكين ، صاحب غزنة بها، وكانت ولاية بهرام شاه ستاً وثلاثين سنة، وكان عادلًا حسن السيرة، جميل الطريقة مُحِبا للعلماء، مكرماً لهم ، باذلًا لهم الأموال الكثيرة، جامعاً للكتب ، تُقرْأ بين يديه ، ويَفْهم مضمونها، ولما مات ، ملك ولد. خسروشاه الملك بعده .

ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان

في هذه السنة ، ملك الفرنج بالشام ، مدينة عسقلان ، وكانت من

بلة مملكة الظافر

بالله العلوي المصري ، وكان الفرنج كل سنة يقصدونها، ويحصرونها ، فلا يجدون الى ملكها سبيلاً، وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد، والخلفاء معهم إسم لا معنى تحته ، وكافي الوزراء كل سنة يرسلون إليها من الذخائر، والأسلحة والأموال ، والرجال من يقوم بحفظها، فلما كان في هذه السنة، قُتِل ابن السلار– على ما ذكرناه – واختلفت الأهواء في مصر، ووُلي عباس الوزارة، وإلى أن استقرىَ قاعدة، اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان ، فاجتمعا، وحصروها، فصبر أهلها، وقاتلوهم قتالاً شديدا، حتى أنهم بعض الأيام قاتلوا خارج السور، وردوا الفرنج ، إلى خيامهم مقهورين ، وتبعهم أهل البلد إليها، فأيس حينئذ الفرنج من ملكه ،فبينا هم على عزم الرحيل ، إذ قد أتاهم الخبر أن البلد قد وقع بين أهله خلاف ، وقتل منهم قتلى ، فصبروا، وكان سبب هذا الاختلاف : أنهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين ، ادعى كل طائفة منهم أن النصرة من جهتهم كانت ، وأنهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين ، فعظم الخصام بينهم ، إلى أن قتل من إحدى الطائفتين قتيل ، واشتد الخطب وعظُم حينئذ، وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم ، فقُتِل بينهم قتلى، فطمع الفرنج ، وزحفوا إليه ، وقاتلوا عليه ، فلم يجدوا من يمنعهم ، فملكوه .

ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها

في هذه السنة، سيّر الخليفة المقتفي لأمر الله ، عسكراً إلى تكريت ليحصروها،

وأرسل معهم مقدماً عليهم ابن الوزير عون الدين بن هبيرة، وترشك ، وهو من خواص الخليفة ، وغيرهما ، فجرى بين ابن الوزير وترشك منافرة ج وْجبت أن كتب ابن الوزير يشكو من ترشك ، فأمر الخليفة بالقبض على ترشك ، فعرف ذلك ، فأرسل إلى مسعود بلال ، صاحب تكريت ، فصالحه وقبض على ابن الوزير ومن معه من المقدمين ، وسلمهم إلى مسعود بلال ، فانهزم العسكر، وغرق منه كثير، وسار مسعود بلال وترشك من تكريت إلى طريق خراسان ، فنهبا، وأفسدا ، فسار المقتفي عن بغداد لدفعهما، فهربا من بين يديه ،

فقصد تكريت فحصرها أياماً، وجرى له مع أهلها حروب من وراء السور، فَقُتِل من العسكر جماعة بالنشاب ، فعاد الخليفة عنها، ولم يملكها .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، وصلت مراكب من صقلية، فيها جمع من الفرنج ، فنهبوا مدينة تنيس ، بالديار المصري .

وفيها كان بين الكرج ، بأرمينية ، وبين صلتق ، صاحب أرزن الروم ، مصاف ، وحرب شديد وانهزم صلتق ، وأسره الكرج ، ثم أطلقوه .

وفيها توفي أبو العباس أحمد بن أبي غالب الوراق ، المعروف بابن الطلاية الزاهد البغدادي بها ، وكان من الصالحين ، وله حديث ورواية .

وتوفي عبد الملك بن عبد اللّه بن أبي سهل أبو الفتح بن أبي القاسم الكروخي الهروي ، راوي جامع الترمذي ، ومولده سنة اثنتين ، ومن طريقه سمعناه .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز

في هذه السنة ، في المحرم قُتِل الظافر بالله أبو المنصور اسماعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي ، صاحب مصر، وكان سبب قتله ، أنّ وزيره عباساً كان له ولد اسمه نصر، فأحبه الظافر، وجعله من ندمائه ، الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة ، فاتفق أن قدم من الشام ، مؤيد الدولة الأمير أسامة بن منقذ الكناني في وزارة ابن السلار، واتصل بعباس ، فحسن له قتل العادل بن السلار، زوج أمه ، فقتله ، وولاه الظافر الوزارة ، فاستبد بالأمر، وتم له ذلك ،وعلم الأمراء والأجناد أن ذلك من فعل ابن منقذ، فعزموا على قتله ،فخلا بعباس ، وقال له : كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول ؟ قال : وما ذلك ؟ قال : الناس يزعمون أن الظافر، يفعل بابنك نصر! وكان نصر خصيصاً بالظافر، وكان ملازماً له ليله ، ونهاره ، وكان من اجمل الناس صورة ، وكان الظافر يتهم به ، فانزعج لذلك ، وعظُم عليه ، وقال : كيف الحيلة؟ قال تقتله ، فيذهب عنا العار. فذكر الحال لولده نصر، فاتفقا على قتله ، وقيل إنّ الظافر أقطع نصر بن عباس ، قرية قليوب ، وهي من أعظم قرى مصر، فدخل إليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه عباس ، قال له نصر: قد أقطعني مولانا قرية قليوب ، فقال له مؤيد الدولة: ما هي في مهرك بكثير. فعظُم عليه وعلى أبيه ، وأنف من هذه الحال ، وشرع في قتل الظافر، فأمر ابنه ، فحضر نصر عند الظافر، وقال له : اشتهي أن تجيء إلى داري لدعوة صنعتها، ولا تكثر من الجمع ، فمشى معه في نفر يسير من الخدم ليلأ، فلما دخل الدار قتله ومن معه ، وأفلت خويدم صغير اختبأ، فلم يروه ودفن القتلى في داره ، وأخبر أباه عباساً الخبر، فبكر إلى القصر، وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذناً في الدخول عليه ، لأمر يريد أن يأخذ رأيه قيه ، فقالوا : إنه ليس قي القصر، قتال لا بد

منه وكان غرضه أن ينفي التهمة عنه بقتله ، وأن يقتل كل من بالقصر، ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه في الخلافة ، فلما ألج عليهم عجزوا عن إحضاره ، فبينما هم يطلبونه حائرين ، دهشين ، لا يدرون ما الخبر، إذ وصل إليهم الخويدم الصغير، الذي شاهد قتله ، وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه ، وأخبرهم بقتل الظافر، فخرجوا إلى عباس ، وقالوا له : سل ولدك عنه ، فإنه يعرف أين هو، لأنهما خرجا جميعاً فلما سمع ذلك منهم ، قال : أريد ان اعترض القصر، لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله ، فاستعرض القصر، فقتل أخوين للظافر، وهما يوسف وجبريل ، وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله اسماعيل ، ثاني يوم قتل أبوه ، وله من العمر خمس سنين ، فحمله عباس على كتفه ، وأجلسه على سرير الملك ، وبايع له الناس وأخذ عباس من القصر من الأموال ، والجواهر، والأعلاق النفيسة ، ما أراد ، ولم يترك فيه إلا ما لا خير فيه .

ذكر وزارة الملك الصالح بن رزيك

كان السبب في وزارة الملك الصالح بن رزيك ، أن عباساً لما قتل الظافر وأقام الفائز،ظن أن الأمر يتم له على ما يريده ، فكان الحال خلاف ما اعتقده ، فإن الكلمة اختلفت عليه وثار به الجند والسودان ، وصار إذا أمر بالأمر لا يلتفت إليه ، ولا يسمع قوله ، فأرسل من بالقصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رزيك يستغيثون به ، وأرسلوا شعورهم على الكتب ، وكان في منية بني خصيب والياً عليها، وليست من الأعمال الجليلة، وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم ، وكان فيه شهامة، فجمع ليقصد عباساً، وسار إليه ، فلما سمع عباس ذلك ، خرج من مصر نحو الشام ، بما معه من الأموال ، التي لا تحصى كثرة، والتحف والأشياء، التي لا توجد إلا هناك ، مما كان أخذه من القصر، فلما سار وقع به الفرنج ، فقتلوه ، وأخذوا جميع ما معه ، فتقووا به ، وسار الملك الصالح ، فدخل القاهرة بأعلام سود، وثياب سود، حزناً على الظافر، والشعور التي أرسِلت إليه من القصر على رؤوس الرماح وكان هذا من الفأل العجيب ، فإن الأعلام السواد العباسية

دخلتها، وأزالت الأعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة، ولما دخل الصالح القاهرة ، خُلع عليه خلع الوزارة ، واستقر في الأمر، وأحضر الخادم الذي شاهد قتل الظافر، فأراه موضع دفنه ، فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر، ولما قتل الفرنج

عباساً ، أسروا ابنه ، فأرسل الملك الصالح إلى الفرنج ،وبذل لهم مالاً ، وأخذه منهم ، فسار من الشام مع أصحاب الصالح ،فلم يكلم أحدا كلمة واحدة إلى أن رأى القاهرة فأنشد :

بلَى نَحْنُ كنا أهلُها فأبادَنَا   صروفُ الليالي والجدودِ العواثِرِ

وأُدخل القصر، فكان آخر العهد به ، فإنه قتل ، وصلب على باب زويلة، واستقص الصالح البيوت الكبار والأعيان

وأُدخل القصر، فكان آخر العهد به ، فإنه قتل ، وصلب على باب زويلة، واستقصى الصالح البيوت الكبار، والأعيان بالديار المصرية ، فأمسك أهلها ، وأبعدهم عن ديارهم ، وأخذ أموالهم ، فمنهم من هلك ومنهم تفرق في البلاد ، والحجاز واليمن ، وغيرها، فعل ذلك خوفاً منهم أن يثوروا عليه ، وينازعوه في الوزارة، وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس ، فلما قُتِل ، هرب إلى الشام .

ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا

في هذه السنة ، أرسل الخليفة ، المقتفي لأمر الله رسولًا إلى والي تكريت ، بسبب من عندهمِ من المأمورين ، وهم ابن الوزير، وغيره ، فقبضوا على الرسول ، فسيّر الخليفة عسكراَ إليهم ، فخرج أهل تكريت ، فقاتلوا العسكر ومنعوه من الدخول إلى البلد ، فسار الخليفة بنفسه ، مستهل صفر، فنزل على البلد، فهرب أهله ، فدخل العسكر، فشعثوا، ونهبوا بعضه ، ونصب على القلعة ثلاثة عشرة منجنيقاً، فسقط من أسوارها برج ، وبقي الحصر كذلك ، إلى الخامس والعشرين من ربيعٍ الأول ، وأمر الخليفة بالقتال والزحف ، فاشتد القتال ، وكَثُر القتلى ، ولم يبلغ منها غرضا، فرحل عائداً الى بغداد، فدخلها آخر الشهر، ثم أمر الوزير عون الدين بن هبيرة بالعودة إلى محاصرتها، والاستعداد، والاستكثار من الآلات للحصار، فسار إليها سابع ربيع الأخر، ونازلها ، وضيق عليها ، فوصل الخبر: بأن مسعود بلال وصل الى شهرابان ، ومعه البقش كون خروترشك ، وعسكر كثير، ونهبوا البلاد فعاد الوزير إلى بغداد، وكان سبب وصول هذا العسكر، أنهم حثّوا

الملك محمد ابن السلطان محمود، على قصد العراق ، فلم يتهيأ له ذلك ،

فسير هذا العسكر، وانضاف إليهم خلق كثيرً من التركمان ، فخرج الخليفة إليهم ، فأرسل بلال مسعود إلى تكريت ، وأخرج منها الملك أرسلان ابن السلطان طغرل بن محمد، وكان محبوساً بتكريت ، وقال : إن هذا سلطان ، نقاتل بين يديه بإزاء الخليفة،. والتقى العسكران عند بكمزا ، وبالقرب من يعقوبا ، ودام بينهم المناوشة ، والمحاربة ، ثمانية عشر يوما، ثم إنهم التقوا آخر رجب ، فاقتتلوا، فانهزمت ، ميمنة عسكر الخليفة، وبقض القلب ، حتى بلغت الهزيمة بغداد، ونهبت خزائنه ، وقُتل خازنه ، فحمل الخليفة بنفسه هو، وولي عهده ، وصاح : يا آل هاشم ، كذب الشيطان وقرأ { ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً } وحمل باقي العسكر معه ، فانهزم مسعود والبقش ، وجميع من معهم ، وتمت الهزيمة، وطفر الخليفة بهم ، وغنم عسكره جميع مال التركمان ، من دواب ، وغنم وغير ذلك ، فبيع كل كبش بدانق ، وكانوا قد حضروا بنسائهم ، وأولادهم وخركاواتهم ، وجميع مالهم ، فأُخذ جميعه ، ونودي من أُخذ من أولاد التركمان ، ونسائهم ، شيئاً فليردّه ، فردوه ، فأخذ البقش كون خر الملك أرسلان ، وانهزم إلى بلد اللحف ، وقلعة الماهكين .

وفي هذه الحرب ، غدر بنو عوف ، من عسمكر الخليفة، ولحقوا بالعجم ، ومضى هندي الكردي ، أيضاً معهم ، وكان الملك محمد قد أرسل عسكراً مع خاص بك بن آقسنقر، نجدة لكون خر، فلما وصلوا إلى الراذان ، بلغهم خبر الهزيمة ، فعاد ، ورجع الخليفة إلى بغداد، فدخلها أوائل شعبان ، فوصل الخبر أن مسعود بلال وترشك قصدا مدينة واسط ، فنهبوا، وخربوا، فسير الخليفة الوزير ابن هبيرة في عسكر خاص عشر شعبان ، فانهزم العجم ، فلحقهم عسكر الخليفة، ونهب منهم شيئاً كثيراً، وعاد إلى بغداد، فلقب الوزير سلطان العراق ملك الجيوش ، وسيّر الخليفة عسكراً إلى بلد اللحف ، فأخذه وصار في جملته ، وأما الملك ألب أرسلان بن طغرل ، فإن البقش أخذه معه إِلى بلده ، فأرسل إليه الملك محمد يقول له : ليحضر عنده ، وأرسلان معه . فمات البقش كون خر في رمضان ، في هذه السنة، وبقي

أرسلان مع ابن البقش ،وحسن الجاندار، فحملاه إلى الجبل ، فخاف السلطان محمد أن يصل أرسلان إلى زوج أمه أبي بكر، فيجعله ذريعة إلى قهر البلاد ، فلم ينفعه حذره ، واتصل ارسلان بأبي بكر زوج أمه ، فصار معه ، وهو أخو بلهوان بر أيلدكز لأمه ، وطغرل الذي قتله خوارزم شاه ولد أرسلان هذا ، وكان طغرل آخر السلجوقية .

ذكر ملك نور الدين محمود مدينة دمشق

في هذه السنة، في صفر، ملك نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، مدينة دمشق ، وأخذها من صاحبها مجير الدين أنز بن محمد بن بوري بن طغدكين أتابك ، وكان سبب حرصه على ملكها، أن الفرنج لما ملكوا، في العام الماضي ، مدينة عسقلان ، لم يكن لنور الدين طريق إلى إزعاجهم عنها، لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان ، فلما ملك الفرنج عسقلان ، طمعوا في دمشق حتى أنهم استعرضوا كل من بها من مملوك ، وجارية من النصارى ، فمن أراد المقام بها تركوه ، ومن أراد العود إلى وطنه أخذوه قهراً شاء صاحبه أم أبى، وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها ينهم ، فكان رسلهم يدخلون البلد ، ويأخذونها منهم ، فلما رأى نور الدين ذلك ، خاف أن يملكها الفرنج ، فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام ، فأعمل الحيلة في أخذها، حيث علم أنها لا تملك قوة، لأن صاحبها متى رأى غلبة ممن يقصده ، راسل الفرنج ، واستعان بهم لئلا يملكها من يقوى بها على قتالهم ، فراسل مجير الدين صاحبها، واستماله ، وواصله بالهدايا ، وأظهر له المودة حتى وثق إليه ، فكان نور الدين يقول له قي بقض الأوقات : إن فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق ، يعني بعض أمراء مجير الدين ، فكان يبعد الذي قيل عنه ، ويأخذ أقطاعه ، فلما لم يبق عنده من الأمراء أحداً ، قدم أميراً يقال له عطاء بن حفاظ السلمي ، الخادم ، وكان شهماً شجاعاً، وفوض إليه أمر دولته ، فكان نور الدين لا يتمكن معه من أخذ دمشق ، فقبض عليه مجير الدين ، وقتله ، فسار نور الدين حينئذ إلى دمشق ، وكان قد كاتب من بها من الأحداث ، واستمالهم فوعدوه بالتسليم إليه ، فلما حضر نور الدين البلد، أرسل مجير الدين إلى الفرنج ، يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه ، ويرحلوا نور الدين عنه ، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن البلد، فإلى أن اجتمع لهم ما يريدون ، تسلم نور الدين البلد، فعادوا بخفي حُنَيْن .

أما كيفية تسليم دمشق : فإنه لمَّا حصرها، ثار الأحداث الذين راسلهم ، فسلموا

إليه البلد من الباب الشرقي ، وملكه وحصر مجير الدين في القلعة، وراسله في تسليمها، وبذل له أقطاعاً من جملته مدينة حمص ، فسلمها إليه ، وسار الى حمص ، واعطاه عوضاً عنها بالس ، فلم يرضها ، وسار منها الى العراق ، وأقام ببغداد ، وابتن بها

داراً بالقرب من النظامية وتوفي بها .

ذكر قصد الإِسماعيلية خراسان والظفر بهم

في هذه السنة ، في ربيع الآخر، اجتمع جمع كثير من الإسماعيلية ، من قهستان ، بلغت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ما بين فارسٍ ، وراجل ، وساروا يريدون خراسان ، لاشتغال عساكرهم بالغز، وقصدوا أعمال خواف ، وما يجاورها ، فلقيهم الأمير فرخشاه بن محمود الكاساني ، في جماعة من حشمه وأصحابه ، فعلم أن لا طاقة له بهم ، وسار عنهم ، وأرسل إلى الأمير محمد بن أنز، وهو من أكابر امراء خراسان ، وأشجعهم ، يعزفه الحال ، وطلب منة المسير إليهم بعسكره ، ومن قدر عليه من الأمراء، ليجتمعوا عليهم ، ويقاتلوهم ، فسار محمد بن أنز في جماعة من الأمراء، وكثير من العسكر، واجتمعوا هم وفرخشاه ، ودافعوا الإسماعيلية ، وقاتلوهم وطال الحرب بينهم ، ثم نصر الله المسلمين ، وانهزم الاسماعيلية ، وكثُر القتل فيهم وأخذهم السيف من كل مكان ، وهلك أعيانهم ، وساداتهم ، بعضهم قُتِل ، وبعضهم أُسِر، ولم يسلم منهم إلا القليل الشريد ، وخلت قلاعهم وحصونهم من حام ومانع ، فلولا اشتغال العساكر بالغز، لكانوا ملكوها بغير تعبٍ ولا مشقة، وأراحوا المسلًمين منهم ، ولكن لله أمر وهو بالغه .

ذكر ملك نور الدين تل باشر

في هذه السنة ، أو التي بعدها، ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة تل باشر، وهي شمالي حلب ، من أمنع القلاع . وسبب ملكها، أنّ الفرنج لما رأوا ملك نور الدين دمشق ، خافوه ، وعلموا أنه يقوى عليهم ، ولا يقدرون على الِإنتصاف منه ، لما كانوا يرون منه قبل ملكها ، فراسله من بهذه القلعة من الفرنج ، وبذلوا له تسليمها ، فسير إليهم الأمير حسان المنبجي ، وهو من أكابر أمرائه ، وكان اقطاعه ذلك الوقت مدينة منبج ، وير تقارب تل باشر، وأمره أن يسير اليها، ويتسلمها، فسار إليها وتسلمها منهم ، وحصّنها، ورفع إليها مِنَ الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، مات أستاذ دار أبو الفتوح عبدالله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء ، وكان له صدقات ، ومعروف كثير، ومجالسه للفقراء ، ولما مات وُلي الخلافة ،

ابنه الأكبر عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله ، ما كان إلى أبيه .

وتوفي عبد الرحمن بن عبد الصمد بن أحمد بن علي أبو القاسم. الأكاف النيسابوري ، كان زاهداً عابداً فقيهاً مناظراً ، وكان السلطان سنجر يزوره ويتبرك بدعائه ، وكان ربما حجبه فلا يمكنه من الدخول إليه .

وفيها توفي ثقة الدولة أبو الحسن علي بن محمد الزويني القزويني وكان يخدم أبا نصر محمد بن الفرج الأبري ، وزوجة ابنته شهدة الكاتبة، فقربه المقتفي لأمر الله ، ووكله فبق مدرسة بباب الأزج .

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

في هذه السنة ، سار الخليفة المقتفي لأمر الله إلى دقوقا فحصرها، وقاتل من بها،

ثم رحل عنها لأنه بلغه أن عسكر الموصل قد تجهزوا للمسير لمنعه عنها، فرحل ولم يبلغ غرضاً .

وفيها استولى شملة التركماني على خوزستان ، وصاحبه ، حينئذ، ملكشاه محمود

ابن محمد، فسير الخليفة إليه عسكراً ، فلقيهم شملة في رجب ، وقاتلهم ، فانهزم عسكر الخليفة، وأسر وجوههم ، ثم أحسن إليهم شملة، وأطلقهم ، وأرسل يعتذر، فقبل عذره ، وسار إلى خوزستان ، فملكها ،وأزاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد.

وفيها سار الغزالى نيسابور، فملكوها بالسيف ودخلوها، وقتلوا محمد بن يحيى الفقيه الشافعي ، ونحواً من ثلاثين ألفاً، وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة، وهو معتقل ، لا يُلتفت إليه ، حتى أنه أراد كثيراً من الايام ان يركب ، فلم يكن له من يحمل سلاحه ، فشدَّه على وسطه وركب ، وكان إذا قُدِّم إليه طعام ، يدخر منه ما يأكله وقتاً اخر خوفاً من انقطاعه عنه لتقصيرهم في واجبه ، ولأنهم ليس هذا مما يعرفونه .

وفيها وثب قسوس الأرمن بمدينة آني فأخذوها من الامير شداد وسلموها إلى أخيه فضلون . وفيها في ذي الحجة قتل الأتراك القارغلية، طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر، وألقوه في الصحراء، ونسبوه إلى أشياء قبيحة،وكان مدة ملكه مستضعفأ، غير مهيب .

وفيها توفي ابو الفضل محمد بن ناصر بن علي البغدادي ، الحافظ ، الأديب ، وكان

مشهوراً بالفضل ، وكان شافعياً، وصار حنبلياً مغالياً، ومولده سنة سبع وستين وأربعمائة في شعبان ، وكان موته أيضاً في شعبان .

وفيها كان بالعراق ، وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة في ذي الحجة .

وفيها توفي يحيى الغساني النحوي الموصلي ، وكان فاضلاً خيرا ً،وتاج الدين أبو طاهر يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، قاضي جزيرة ابن عمر.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

ذكر عصيان الجزائر وافريقية عل ملك الفرنج بصقلية ، وما كان منهم

قد ذكرنا سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، موت رجار ملك مقلية، وملك ولده غليالم ، وأنّه كان فاسد التدبير، فخرج عن حكمه عدة من حصون صقلية، فلما كان هذه السنة، قوي طمع الناس فيه ، فخرج من طاعته جزيرة جربة، وجزيرة فرقنة، وأظهروا الخلاف عليه ،وخالف عليه أهل افريقية ، فأول من أظهر الخلاف عليه : عمر بن أي الحسين الفريابي بمدينة سفاقس ، وكان رجار قد استعمل عليها لما فتحها أباه ، أبا الحسين ، وكان من العلماء الصالحين ، فأظهر العجز والضعف ، وقال : استعمل ولدي . فاستعمله ، وأخذ أباه رهينة إلى صقلية ، فلما أراد المسير إليها ،قال لولده عمر: إنني كبير السن ، وقد قارب أجلي ، فمتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ، ولا تراقبهم ، ولا تنظر في أنني أُقتَل ، واحسب أني قدمت . فلما وجد هذه الفرصة ، دعا أهل المدينة إِلى الخلاف ، وقال : يطلع جماعة منكم إلى السور، وجماعة يتصدون مساكن الفرنج والنصارى، جميعهم ، ويقتلونهم كلهم ، فقالوا له : إن سيدنا الشيخ ، والدك ، نخاف عليه ، قال : هو أمرني بهذا ، وإذا قتِل بالشيخ ألوف من الاعداء فما مات . فلم تطلع الشمس ، حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم ، وكان ذلك أول سنة إِحدى وخمسين وخمسماثة، ثم اتبعه يحيى بن مطروح بطرابلس ، وبعدهما محمد بن رشيد بقابس ، وسار عسكر عبد المؤمن إلى برنة، فملكها، وخرج جميع افريقية عن حكم الفرنج ، ما عدا المهدية، وسوسة، وأرسل عمر بن أبي الحسين ، إلى زَويلة، وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان ، يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ، ففعلوا ذلك ، وقدم عرب البلاد الى زويلة ، فأعانوا أهلها على من

بالمهدية من الفرنج ، وقطعوا الميرة عن المهدية، فلما اتصل الخبر بغليالم ، ملك صقلية، أحضر أبا الحسين وعرفه ما عمل ابنه ، فأمره أن يكتب اليه ينهاه عن ذلك ، ويأمره بالعود إلى طاعته ، ويخوَفه عاقبة فعله فقال : من قدم على هذا يرجع بكتاب ، فأرسل ملك صقلية إليه رسولًا، يتهدده ، ويأمره بترك ما ارتكبه ، فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك ، فلما كان الغد، خرج أهل البلد جميعهم ، ومعهم جنازة، والرسول يشاهدهم ، فدفنوها ، وعادوا ، وأرسل عمر إلى الرسول يقول له : هذا أبي قد دفنته ، وقد جلست للعزاء به فاصنعوا به ما اردتهم ، فعاد الرسول إلى غُليالم ، فأخبره بما صنع عمر بن أبي الحسين ، فأخذ أباه وصلبه ، فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات وأما أهل زويلة فإنهم كثر جمعهم بالعرب ، وأهل سفاقس ، وغيرهم ، فحصروا المهدية وضيقوا عليها، وكانت الأقوات بالمهدية قليلة فسيّر إليهم صاحب صقلية عشرين شينيا ، فيها الرجال ، والطعام ، والسلاح ، فدخلوا البلد ، وأرسلوا إلى العرب ، وبذلوا لهم مالاً لينهزموا ، وخرجوا من الغد، فاقتتلوا هم وأهل زويلة فانهزمت العرب ، وبقي أهل زويلة وأهل سفاقس ، وركبوا في البحر فنجوا ، وبقي أهل زويلة، فحمل عليهم الفرنج ، فانهزموا إلى زويلة ، فوجدوا أبوابها مغلقة ، فقاتلوا تحت السور، وصبروا حتى قُتِل أكثرهم ولم ينج إلا القليل ، فتفرقوا، ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن ، فلما قُتِلوا هرب من سَلِم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر، ولم يعرجوا على شيء من أموالهم ، ودخل الفرنج زويلة، فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال ، وأستقر الفرنج بالمهدية ، إلى ان أخذها منهم عبد المؤمن ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل

في هذه السنة قبض زين الدين على كوجُك ،نائب قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه ، وكان سليمان شاه عند عمه السلطان سنجر قديماً، وقد جعله ولي عهده ، وخطب له على منابر

خراسان ، فلما جرى لسنجر مع الغز ما ذكرناه ، وتقدم على عسكر خراسان ، وضعفوا عن الغز، مض إلى خوارزم شاه ، فزوجه ابنة أخيه أتسيس ، ثم بلغه عنه ما كرهه ، فأبعده ، فجاء إلى أصفهان ، فمنعه شحنتها من الدخول ، فمضى إلى قاشان ،

فسير إليه محمد شاه ابن أخيه محمود بن محمد، عسكراً، أبعدوه عنها، فسار إِلى خوزستان ، فمنعه ملكشاه عنها، فقصد اللحف ، ونزل البندنيجين ، وأرسل رسولاً الى الخليفة المقتفي يعلمه بوصوله ، وترددت الرسل بينهما إلى أن استقر الأمر على أنْ يرسل زوجته تكون رهينة، فأرسلها إلى بغداد، ومعها كثير من الجواري والأتباع ، وقال: قد أرسلت هؤلاء رهائن ، فانْ أذن أمير المؤمنين في دخول بغداد، فعلت ، وإلا رجعت ، فأكرم الخليفة زوجته ومن معها، وأذن له في القدوم إليه ، فقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلاثمائة رجل ، فخرج ولد الوزير ابن هبيرة لتلقيه ومعه قاضي القضاة والنقيبان ، ولم يترجل له ابن الوزير، ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة، وخلع عليه الخليفة، وأقام ببغداد إلى أن دخل المحرم ، من سنة إحد وخمسين وخمسمائة، فأحضر فيه سليمان شاه إلى دار الخليفة، وأحضر قاضي القضاة والشهود وأعيان العباسيين ، وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وأنّه لا يتعرض إلى العراق بحال ، فلما حلف خطب له ببغداد، ولقب ألقاب أبيه ، غياث الدنيا والدين وباقي ألقابه ، وخَلَعَ عليه خلع السلطنة، وسير معه من عسكر بغداد ثلاثة آلاف فارس ، وجعل الأمير قويدان صاحب الحلة أمير حاجب معه ، وسار نحو بلاد الجبل في ربيع الأول ، وسار الخليفة إلى حلوان ، وأرسل إلى ملكشاه ابن السلطان محمود أخي السلطان محمد، صاحب همذان ، وغيرها، يدعوه إلى موافقته ، فقدم في ألفي فارس ، فحلف كل منها لصاحبه ، وجعل ملكشاه ولي عهد سليمان شاه ، وقوّاهما الخليفة بالمال ، والأسلحة ، وغيرها،فساروا واجتمعوا هم وايلدكز، فصاروا في جمع كبير فلما سمع السلطان محمد خبرهم ، أرسل إلى قطب الدين مودود، صاحب الموصل ، ونائبا زين الدين ، يطلب منهما المساعدة، ويبذل لهما البذول الكثيرة إن طفر، فأجاباه إلى ذلك ، ووافقا ، فقويت نفسه ، وسار إلى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ، ووقعت الحرب بينهم في جمادى الأولى واشتد القتال بين الفريقين ، وانهزم سليمان شاه ومن معه ، وتشتت العسكر، ووصل من عسكر الخليفة، وكانوا ثلاثة آلاف رجل ، نحو من

خمسين رجلا، ولم يُقتل منهم أحد، وإنما أُخِذت خيولهم وأموالهم ، وتشتتوا وجاؤوا متفرقين ، وفارق سليمان شاه ايلدكز، وسار نحو بغداد على شهرزور، فخرجٍ إليه زين الدين علي في جماعة من عسكر الموصل ، وكان بشهرزور الأمير بزان مقطعا لها من جهة زين الدين ، وسارا فوقفا على طريق سليمان شاه ، فأخذاه

أسيراً ، وحمله زين الدين إِلى قلعة الموصل ، وحبسه بها مكرماً ومحترماً إلى أن كان من أمره ، ما نذكره سنة خمس وخمسين إن شاء الله . فلما قبض سليمان شاه ، أرسل زين الدين إِلى السلطان محمود يعرفه ذلك ، ووعده المعاضدة على كل ما يريده منه ، والمساعدة له . والله أعلم .

ذكر حصر نور الدين قلعة حارم

في هذه السنة، سار نور الدين محمود بن زنكي ، إلى قلعة حارم ، وهيِ للفرنج ،

ثم لبيمند صاحب أنطاكية، وهي تقارب انطاكية من شرقيها، وحصرها وضيقَ على أهلها، وهيِ قلعة منيعة في نحور المسلمين ، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه ليرحلوه عنها، وكان بالحصن شيطان من شياطينهم ، يعرفون عقله ، ويرجعون إلى رأيه ، فأرسل إليهم يقول : إننا نقدر على حفظ القلعة ، وليس بنا ضعف ، فلا تخاطروا أنتم باللقاء، فإنه إنْ هزمكم أخذها وغيرها ، والرأي مطاولته ، فأرسلوا إليه ، وصالحوه على أنْ يعطوه نصف أعمال حارم ، فاصطلحوا على ذلك ، ورحل عنهم فقال بعض الشعراء :

ألبستَ دينَ محمديا نوره ... عزا له فوق السعها آساد

مازلت تشمُلُه بميّاد القنا ... حتى تثقفَ عودُهُ المياد

ألم يبقَ مذ أرهفْتَ عزْمك دونه ... عدد يراع به ولا استعداد

إن المنابرَ، لو تطيقُ تكلُّماً ... حمدتْكَ عن خطبائها الأعواد

ملق بأطراق القريحة كلكلا ... طرفاه ضرب صادق وجلاد

حاموا فلما عاينوا خوضِ الردى ... حاموا فرائسَ كيدهم أو كادوا

ㅅㅍ ورأى البرنسَ وقد تبرنسَ ذِلةً حزماً لحازم والمصاد مصاد
ㅇㅍ من منكر أن ينسفَ الليلُ الربا وأبوه ذاك العارض المداد
ㅈㅍ أو أن يعيدَ الشمسَ كاسفة السنى نارٌ لها ذاك الشهاب زناد
ㅊㅍ لا ينفعُ الآباء ما سمكوا من العلياء حتى يرفعَ الأولاد
وهي طويلة .

ذكر وفاة خوارزم شاه أتسز وغيره من الملوك

في هذه السنة، تاسع جمادى الآخرة، توفي خوارزم شاه أتسز بن محمد بن

أنوشتكين ، وكان قد أصابه فالج ، فتعالج منه ، فلم يبرأ ، فاستعمل أدوية شديدة الحرارة بغير أمر الأطباء ، فاشتد مرضه وضعفت قوته ، فتوفي ، وكان يقول عند الموت :

ما أغنى عَنِّي ماليه هلكَ عنّي سلطانيه

وكانت ولادته في رجب ، سنة تسعين وأربعمائة، ولما توفي جملك ، بعده ابنه أرسلان ، فقتل نفراً من أعمامه ، وسمل أخاً له فمات بعد ثلاثة أيام ، وقيل : بل قتل نفسه ، وأرسل إلى السلطان سنجر، وكان قد هرب من أسر الغز– على ما نذكره –ببذل الطاعة ، والانقياد، فكتب له منشوراً بولاية خوارزمٍ ، وسير الخلع له في رمضان ، فبقي في ولايته ساكناً آمناً ، وكان أتسز حسن السيرة ، كافا عن أموال رعيته ، منصفاً لهم محبوباً لهم ، مؤثراً للاحسان ، والخير إليهم ، وكان الرعية معه بين أمن غامر، وعدل شامل . وفي سابع عشر الشهر المذكور توفي أبو الفوارس بن محمد بن ارسلان شاه ملك كرمان وملك بعده ابنه سلجوق شاه .

وفيها توفي الملك مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان قتلمش صاحب قونية وما،

يجاورها من بلاد الروم ، وملك بعده ابنه قلج أرسلان .

ذكر هرب السلطان سنجر من الغز

لا في هذه السنة، في رمضان ، هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وجماعة من الأمراء الذين معه ، وسار الى قلعة ترمذ، واستظهر بها على الغز، وكان خوارزم شاه أتسز بن محمد بن أنوشتكين والخاقان محمود بن محمد يقصدان الغز، فيقاتلانهم قيس معهما، فكانت الحرب بينهم سجالاً وغلب كل واحد من الغز، والخراسانيين ، على ناحية من خراسان ، فهو يأكل دخلها ، لا رأس لهم يجمعهم ، وسار السلطان سنجر من ترمذ إلى جيحون يريد العبور إلى خراسان ، فاتفق أن مقدم الأتراك القارغلية ، واسمه علي بك توفي ، وكان أشد شيء على السلطان سنجر وعلى غيره ،كثير الشر والفساد وإثارة الفتن ، فلما توفي أقبلت القارغلية على السلطان سنجر،

وكذلك غيرهم من سائر الامم من أقاصي البلاد وأدانيها ، وعاد إلى دار ملكه بمرْو في رمضان ، فكانت مدة أسره مع الغز،من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين ،إلى رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد أبيه

في هذه السنة، أمر عبد المؤمن بالبيعة لولد. محمد بولاية عهده ، وكان الشرط

والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمه أن يلي عمر الأمر بعد عبد المؤمن ، فلما تمكن عبد المؤمن من الملك ، وكثر أولاده ، أحب أن ينقل الملك اليهم ، فأحضر أمراء العرب من هلال ، وزغب وعدي ، وغيرهم إليه ووصلهم ، وأحسن إليهم ، ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ، ويقولوا له : نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك ، يرجع الناس إليه بعدك ، ففعلوا ذلك ، فلم يجبهم إكراماً لعمر، لعلو منزل شه في الموحدين ، وقال لهم : إِن الأمر لأبي حفص عمر، فلما علم عمر ذلك ، خاف على نفسه ، فحضر عند عبد المؤمن وأجاب إلى خلع نفسه ، فحينئذٍ بويع لمحمد بولاية العهد، وكتب إلى جميع بلاده بذلك ، وخطب له فيها جميعها، فأخرج عبد المؤمن ، في ذلك اليوم ، من الأموال شيئاً كثيراً .

ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد

في هذه السنة، استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد، فاستعمل ولده أبا محمد

عبد الله على بجاية وأعمالها ، واستعمل ابنه أبا الحسن علياً على فاس وأعمالها، وولى ابنه أبا سعيد سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة، وكذلك غيرهم ، ولقد سلك في استعمالهم طريقاً عجيباً، وذلك انه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحدين المشهورين من اصحاب المهدي محمد بن تومرت ، وكان يتعذر عليه أن يعزلهم ، فأخذ أولادهم وتركهم عنده يشتغلون في العلوم ، فلما تمهروا فيها وصاروا يُقتدى بهم ، قال لآبائهمْ إني أريد ان تكونوا عندي ، استعين بكم على ما أنا بصدده ، ويكون أولادكم في الأعمال لأنهم علماء فقهاء، فأجابوا إلى ذلك وهم فرحون ، مسرورون ، فولى أولادهم ، ثم وضع عليهم بعضهم ممن يعتمد عليه فقال : إني أرى أمراً عظيماً قد فعلتموه ، فارقتم فيه الحزم والأدب ، فقالوا : وما هو؟ فقال : أولادكم في الأعمال ، وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم منها شيء ، مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة، وإني أخاف ، أن ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده ، فعلموا صدق القائل ، فحضروا عند عبد المؤمن ، وقالوا : نحب أن

تستعمل على البلاد السادة أولادك ، فقال : لا أفعل ، فلم يزالوا، حتى فعل ذلك لهم بسؤالهم إياه .

ذكر حصر السلطان محمد بغداد

في هذه السنة، في ذي الحجة، حصر السلطان محمد بغداد. وسبب ذلك أن

السلطان محمد بن محمود كان قد أرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق ، فامتنع الخليفة من إجابته ، إلى ذلك ، فسار من همذان في عساكر كثيرة نحو العراق ، ووعده أتابك قطب الدين – صاحب الموصل – ونائبه زين الدين علي ، بإرسال العساكر إليه ، نجدة له على حصر بغداد، فقدم العراق في ذي الحجة، سنة إحدى وخمسين ، واضطرب الناس ببغداد ، وأرسل الخليفة يجمع العساكر، فأقبل خطلوبرس في عسكر واسط ، ورحل مهلهل إلى الحلة ، فأخذها ، واهتم الخليفة وعون الدين بن هبيرة بأمر الحصار، وجمع جميع السفن وقطع الجسر، وجعل الجميع تحت التاج ، ونودي منتصف المحرم ، سنة اثنتين وخمسين ، أنْ لا يقيم أحد بالجانب الغربي ، فأجفل الناس وأهل السواد، ونقلت الأموال إلى حريم دار الخلافة، وخرب الخليفة قصر عيسى ، والمربعة والقرية والمستجدة والنجمي ، ونهب أصحابه ما وجدوا ، وخرب أصحاب محمد شاه نهر القلائين والتوثة وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقطفتا . وأما أهل الكرْخ وأهل باب البصرة، فإنهم خرجوا إلى عسكر محمد، وكسبوا معهم أموالاً كثيرة، وعبر السلطان محمد فوق حراقة إلى الجانب الغربي ، ونهبت أونا، واتصل به زين الدين هناك ، وساروا فنزل محمد شاه عند الرملة، وفرق الخليفة السلاح على الجند والعامة ، ونصب المنجنيقات والعرادات ، فلما كان في العشرين من المحرم ، ركب عسكر محمد شاه وزين الدين علي ، ووقفوا عند الرقة ، ورموا بالنشاب إلى ناحية التاج ، فعبر إليهم عامة بغداد فقاتلوهم ، ورموهم بالنفط وغيره ، ثم جرى بينهم عدة حروبٍ ، وفي ثالث صفر، عاودا القتال ، واشتدت الحرب ، وعبر كثير من أهل بغداد سباحة، وفي السفن ، فقُتلوا، وكان يوماً مشهوداً، ولم تزل الحرب بينهم كل وقت ، وعمل الجسر على دجلة ، وعبر عليه أكثر العسكر إلى الجانب الشرقي ، وصار القتال في الجانبين ، وبقي زين الدين في الجانب الغربي ، وأمر الخليفة فنودي كل من جرح فله خمسة دنانير، فكان كلما جرح إنسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير، فاتفق أن بقض العامة جرح جرحاً ليس

بكبير، فحضر إلى الوزير يطلب الدنانير، فقال له الوزير: ليس هذا الجرح بشيء ، فعاود القتال ، فضرِب فانشقت جوفه ، وخرج شيء من شحمها، فحمل إلى الوزير، فلما رآه قال : يا مولانا الوزير، أيرضيك هذا؟ فضحك منه ، وأضعف له ، ورتب له من يعالج جراحته إلى أن برىء .

وتعذرت الأقوات في العسكر إلا أنّ اللحم والفواكه والخضر كثيرة، وكانت

الغلات ببغداد كثيرة ، لأن الوزير كان يفرقها في الجند عوض الدنانير، يبيعونها فلم تزل الأسعار عندهم رخيصة ، إلا أن اللحم والفاكهة والخضر قليل عندهم ، واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم ، وعدم المعيشة لأهلها ، وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين في القتال لأجل الخليفة والمسلمين ، وقيل لأن نور الدين محمود ابن زنكي ، وهو أخو قطب الدين ، صاحب الموصل الأكبر ، أرسل إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة، ففتر، وأقصر،ولم تزل الحرب في أكثر الأيام ، وعمل السلطان محمد شاه أربعمائة سلم ليصعد الرجال فيها إلى السور، وزحفوا وقاتلوا، ففتح أهل بغداد أبواب البلد ، وقالوا : أي حاجة بكم الى السلالم ، هذه الأبواب مفتحة ، فادخلوا منها ، فلم يقدروا على أن يقربوها . فبينما الأمر على ذلك ، اذ وصل الخبر إلى السلطان محمد أنّ أخاه ملكشاه وايلدكز، صاحب بلاد أران ، ومعه الملك أرسلان ابن الملك طغرل بن محمد، وهو ابن امرأة ايلدكز، قد دخلوا همذان واستولوا عليها، وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد شاه ، وأموالهم ، فلما سمع محمد شاه ذلك جد في القتال لعله يبلغ مناه ، فلم يقدر على شيء ، ورحل عنها نحو همذان في الرابع والعشرين من ربيع الأول ، سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة . وعاد زين الدين إلى الموصل ، وتفرق ذلك الجمع على عزم العود، إذا فرغ محمد شاه من إصلاح بلاده ، فلم يعودوا يجتمعون وفي كثرة حروبهم لم يُقتل بينهم إلا نفريسير، وإنما الجراح كان كثيراً . ولما ساروا نهبوا يعقوباً وغيرها من طريق خراسان .

ولما رحل العسكر عن بغداد، أصاب أهلها أمراض شديدة حادة، وموّت كثير

للشدة التي مرت بهم .

وأما ملكشاه وإيلدكز ومن معهما ، فإنهم ساروا من همذان إلى الري ، فخرج إليهم إينانج ، شحنتها، وقاتلهم ، فهزموه ، فأرسل الملك محمد الأمير سقمس بن قيماز الحرامي في عسكر نجدة لإِينانج ، فسار سقمس ، وكان ايلدكز وملكشاه ومن معهما قد عادوا من الري

يريدون محاصرة الخليفة، فلقيهم سقمس وقاتلهم فهزموه ، ونهبوا عسكره وأثقالهم ، فاحتاج الملك محمد إلى الإسراع ، فسار فلما بلغ حلوان ، بلغه أن ايلدكز بالدينور، وأتاه رسول من نائبه اينانج أنه دخل همذان ، وأعاد الخطبة له فيها، فقويت نفسه ، وهرب شملة صاحب خوزستان الى بلاده ، وتفرق أكثر جمع ايلدكز

وملكشاه ، وبقيا في خمسة آلاف فارس ، فعادا الى بلادهما شبه الهارب ، ولما دخل محمد شاه همذان ، أراد التجهز لقصد بلاد ايلدكز، فابتدأ به مرض السل ، وبقي به إلى ان مات .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول ، أطلق أبو الوليد البدر بن الوزير بن هبيرة، من حبس تكريت ، ولما قدم بغداد ، خرج أخوه والموكب يتلقونه ، وكان يوماً مشهوداً ، وكان مقامه في الحبس يزيد على ثلاث سنين .

وفيها ، احترقت بغداد في ربيع الآخرة ، وكثُر الحريق بها ، واحترق درب فراشا ، ودرب الدواب ودرب اللبان ، وخرابة بن حربة ، والظفرية ، والخاتونية ، ودار الخلافة ،وباب الأزج ، وسوق السلطان ، وغير ذلك .

وفيها ، في شوال ، قصد الإسماعيلية طبس ، بخراسان ، فأوقعوا بها وقعة عظيمة ، وأسروا جماعة من أعيان دولة السلطان ، ونهبوا أولادهم ودوابهم ، وقتلوا فيهم . وفيها، في ذي القعدة، توفي شيخ الإسلام ، أبو المعالي الحسن بن عبيد الله بن أحمد بن محمد ، المعروف بابن الرزاز، بنيسابور، وهو من أعيان الأفاضل .

وفي هذه السنة، توفي مريد الدين بن بيسان ، رئيس آمد والحاكم فيها على صاحبها ، وولي ما كان إليه بعده ابنه كمال الدين أبو القاسم .

وتوفي أبو الحسن علي بن الحسين الغزنوي ، الواعظ المشهور ببغداد ، وكان قدم

إليها سنة ست عشرة وخمسمائة ، وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامة والخلفاء ، إلا أن المقتفي أعرض عنه بعد موت السلطان مسعود، لإقبال السلطان عليه ، وكان موته فى المحرم .

وتوفي أبو الحسن بن الخل ،الفقيه الشافعي ، شيخ الشافعية، ببغداد، وكان يؤم بالخليفة في الصلاة .

وتوفي ابن الآمد الشاعر، وهو من أهل النيل من أعيان الشعراء في طبقة الغزي والأرجاني ، وكان عمره قد زاد على تسعين سنة .

وفيها، قتل مظفر بن حماد بن أبي الخير، صاحب البطيحة، قتله نفيس بن فضل

ابن أبي الخير في الحمام وولي بعده .

وفيها، توفي الواوا الحلبي الشاعر المشهور.

وفيها ، في رمضان ، توفي الحكيم أبو جعفر بن محمد البخاري ، باسفراين ، وكان عالماً بعلوم الحكماء الأوائل .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ذكر الزلازل بالشام

في هذه السنة، في رجب ، كان بالشام زلازل كثيرة قوية خربت كثيراً من البلاد، وهلك فيها ما لا يُحصى كَثْرةً، فخرب منها بالمرة حماه وشيزر وكفر طاب والمعرة وأفاميه وحمص وحصن الأكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وأنطاكية ، وأما ما لم يكثر فيه الخراب ، ولكن خرب أكثره في جميع الشام وتهدمت أسوار البلاد والقلاع ، فقام نور الدين محمود في ذلك المقام المُرضي ، وخاف على بلاد الِإسلام من الفرنج ، حيث خربت الأسوار، فجمع عساكره وأقام بأطراف البلاد، فلم يزل كذلك حتى فرغ من أسوار البلاد ، وأما كثرة القتلى ، فيكفي أن معلماً كان بالمدينة ، وهي مدينة حماه ، ذُكِر عنه أنه فارق المكتب لمهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فخربت البلد، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم ، قال المعلم ، فلم يأت أحد يسال عن صبي كان له بالمكتب .

ذكر ملك نور الدين حصن شيزر

نبتدىء بذكر هذا الحصن ، ولمن كان قبل أن يملكه نور الدين محمود بن زنكي فنقول : هذا الحصن قريب من حماه ، بينهما نصف نهار، وهو على جبل عال منيع ، لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة ، وكان لآل منقذ الكنانيين ، يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس ، إلى أن انتهى الأمر إلى أبي المرهف نصر بن علي بن نصر بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن علي ، وكان بيده إلى أنْ مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وكان شجاعاً كريماً، فلما حضره الموت استخلف أخاه أبا سلامة مرشد بن علي ، فقال : والله لا وليته ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها، وكان عالماً بالقرآن ، وهو والد مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، فولاها أخاه الأصغر سلطان بن علي ، واصطحبا أجمل صحبة مدة من

الزمان ، فأولد مرشد عدة أولاد ذكور، وكبروا وسادرا ، منهم عز الدولة أبو الحسن علي ، ومؤيد الدولة أسامة، وغيرهما ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر، فجاءه اولاد ذكور، فحسد أخاه على ذلك ، وخاف أولاد أخيه على أولاده ، وسعى بينهم المفسدون ، فغيروا كلًا منهما على أخيه ، فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبيات شعر يعاتبه على أشياء بلغته عنه ، فأجابه بشعر في معناه رأيت إثبات ما تمس الحاجة إليه منه ، وهي هذه الأبيات :

ㄱ ظلومٌ أبت قي الظلمِ إلا تمادياً   وفي الصد والهجرانِ إلا تغاليا
ㄴ شكَتْ هجْرنا والذنبُ في ذاكَ ذَنبها   فيَا عجباً مِن ظالمٍ جاءَ شاكيا
ㄷ وطاوعَتْ الواشينَ في ، وطالما   عصيْتُ عذولاً في هواها، وواشيا
ㄹ ومالَ بها تيهُ الجبالِ إلى القلى   وهيهات أنْ أمسى لها الدهرُ قاليا
ㅁ ولا ناسياً ما أودعَت من عهودِها   وإنْ هي أبدَتْ جفوةً وتناسيا
ㅂ ولفا أتاني مِنْ قريضِك جوهرُ   جمعْتُ المعالي فيه لي ، والمعانيا
ㅅ وكنْتُ هجرتُ الشعرَ حيناً،لأنه   تولى برغمي ،حين ولي شبابيا
ㅇ وأينَ مِنَ السنينِ لفظُ مفرقٍ   إذا رَمَتْ أدنى القول مِنْه ، عصانيا
ㅈ وقُلْتُ أخي يَرعَى بَنِيّ وأسرتي   ويحفظُ عَهْدِي فيهمْ ،وذماميا
ㅊ ويجزيهِم ما لنم أكتفه فعله   لنفسي فَقَدْ أعددتَهُ مِنْ تراثيا
ㅋ فمالك لَما أنْ حنى الدهرُ صعدتي   وثلمَ مني صارماً كان ماضياً
ㅌ تنكرْتَ حتى صار بركَ قسوة   وقربُك مني جفوةً وتناسيا

ㅍ وأصبحْتُ صفرَ الكف مما رجَوْتُهُ   أرى اليأسَ قد عفى سبيلَ رجائيا
ㅎ على أنني ما حِلْتُ عمّا عهدتَه   ولا غيرَتْ هذي السنون وداديا
ㄱ فلا غرو عند الحادثات ، فإنني   أراك يميني والأنامَ شماليا
ㄴ تحلّ بها عذراء لو قُرنَتْ بها   نجومُ السماء، لم تعد دراريا
ㄷ تحلّت بدرٌ منْ صفاتِكَ زانَهَا   كما زان منظومُ اللآلي الغوانيا
ㄹ وعش بانياً للمجدِ ما كانَ واهيا   مشيداً مِنَ الإحسان ما كانَ هاويا

وكان الأمر بينهما فيه تماسك ، فلما توفي مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة،
قلب أخوه لأولاده طهر المجن ، وبادأهم بما يسوءهم ، وأخرجهم من شيزر،
فتفرقوا وقصد أكثرهم نور الدين ، وشكوْا إليه ما لقوا مِنْ عمهم . فغاظه
ذلك ، ولم يمكنه تصد.

والأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج ، ولخوفه أن يسلم شيزر إلى الفرنج ، ثم توقي سلطان وولي بعده أولاده ، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج ، فاشتد حنقه عليهم ، وانتظر فرصة تمكنه ، فلما خربت القلعة هذه السنة - بما ذكرناه - من الزلزلة لم ينج من بني منقذ الذين بها احد وسبب هلاكهم أجمعين ، أن صاحبها منهم ، كان قد ختن ولداً له ، وعمل دعوة للناس ، وأحضر جميع بني منقذ عنده في داره ، وكان له فرس يحبه ، ولا يكاد يفارقه ، لاذا كان في مجلس أقيم الفرس على بابه ، وكان المهر في ذلك اليوم على باب الدار، فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار، فرمح الفرس رجلًا كان أولهم ، فقتله ، وامتنع الناس من الخروج ، فسقطت الدار عليهم كلهم ، وخربت القلعة، وسقط سورها، وكل بناء فيها، ولم ينج منها إلا الشريد، فبادر إليها بعض امرائه ، وكان بالقرب منها - فصعد إليها - وتسلمها نور الدين منه ، فملكها ، وعمر أسوارها ودورها ، وأعادها جديدة .

ذكر وفاة الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة

كانت الجزيرة لأتابك زنكي ، فلما قُتِل سنة إحدى وأربعين ، أقطعها ابنه سيف الدين غازي ، للأمير أبي بكر الدبيسي ، وكان من أكابر أمراء والده ، فبقيت بيده إلى إلأن ، وتمكن منها، وصار بحيث تعذر على قطب الدين أخذها منه ، فمات في ذي الحجة، سنة اثنتين وخمسين ، ولم يخلف ولداً، فاستولى عليها مملوك له ، اسمه غُلبك ، وأطاعه جندها فحصرهم مودود ثلاثة أشهر، ثم تسلمها من غلبك في صفر، من سنة ثلاث وخمسين ، وأعطاه عوضها أقطاعاً كثيرة .

ذكر وفاة السلطان سنجر

في هذه السنة ، في ربيع الأول ، توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان

أبو الحرث ، أصابه قولنج ثم بعده إسهال ، فمات منه ، ومولده بسنجار من ديار الجزيرة ، في رجب ، سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وسكن خراسان ، واستوطن مدينة مرْو، ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد، واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله ، فعهد إلى محمد بالسلطنة ، وجعل سنجراً ولف

عهده ، فلما مات محمد خوطب لسنجر بالسلطان ،واستقام أمره ، وأطاعه السلاطين ، وخُطِب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو

أربعين سنة ، وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة ولم يزل أمره عالياً ، وجده متراقياً، إلى أن أسره الغز– على ما ذكرناه – ثم إنه خلص بعد مدة وجمع إليه أطرافه وكاد يعود إليه ملكه ، فأدركه أجله ، وكان مهيباً كريماً ، رفيقاً بالرعية ، وكانت البلاد في زمانه آمنة ولما مات دُفِن في قبة بناها لنفسه ، سماها دار الآخرة، ولما وصل خبر موته إلى بغداد، قطعت خطبته ، ولم يُجْلس له في الديوان للعزاء، ولما حضر السلطان سنجر الموت ، استخلف على خراسان ، الملك محمود بن محمد بن بغراخان ، وهو ابن اخت السلطان سنجر، فأقام بها خائفاً من الغز، فقصد جرجان يستظهر بها، وعاد الغز إلى مرْو وخراسان ، واجتمع طائفة من عساكر خراسان على أي أبه المؤيد ، فاستولى على طرف من خراسان ، وبقيت خراسان على هذا الاختلال إلى سنة أربع وخمسين . وراسل الغز الملك محموداً – على ما نذكره – سنة ثلاث وخمسين ، وسألوه أن يحضر عندهم ليملكوه عليهم ، فلم يثق إليهم ، وخافهم على نفسه ، فأرسل ابنه إليهم ، فأطاعوه مديدة، ثم لحق بهم الملك محمود–على ما نذكره –سنة ثلاث وخمسين .

ذكر ملك المسلمين مدينة المريَّة وانقراض دولة الملثمين بالأندلس

في هذه السنة، انقرضت دولة الملثمين بالأندلس ، وملك أصحاب عبد المؤمن

مدينة المرية من الفرنج . وسبب ذلك ، أن عبد المؤمن لما استعمل ابنه أبا سعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر ابو سعيد البحر إلى مالقة ، واتخذها داراً ، وكاتبه ميمون بن بدر اللمتوني ، صاحب غرناطة ، أن يوحد ويسلم إليه غرناطة ، فقبل أبو سعيد ذلك منه ، وتسلم غرناطة ، فسار ميمون إلى مالقة بأهله وولده ، فتلقاه أبو سعيد ، وأكرمه ، ووجهه إلى مراكش ، فأقبل عليه عبد المؤمن ، وانقرضت دولة الملثمين ، ولم يبق لهم إلا جزيرة ميورقة مع حمو بن غانية ، فلما ملك أبو سعيد غرناطة ، جمع الجيوش ، وسار إلى مدينة المرية ، وهي بأيدي الفرنج أخذوها من المسلمين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، فلما نازلها وافاه الأسطول من سبتة، وفيه خلق كثير من المسلمين ، فحضروا المرية براً وبحراً، وجاء الفرنج إلى حصنها، فحصرهم فيها، ونزل عسكره على الجبل المشرف

عليها، وبنى أبو سعيد سوراً على الجبل المذكور إلى البحر، وعمل عليه خندقاً، فصارت المدينة والحصن الذي فيه الفرنج محصوراً بهذا السور والخندق ، ولا يمكن من ينجدهما من أن يصل إليهما ، فجمع الأذفونش ، ملك الفرنج بالأندلس ، المعروف

بالسليطين ، في اثني عشر ألف فارس من الفرنج ، ومعه محمد بن سعيد بن مردنيش في ستة آلاف فارس من المسلمين ، وراموا الوصول إلى المدينة ، ودفع المسلمين عنها، فلم يطيقوا ذلك ، فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين ، فمات السليطين في عوده قبل أن يصل إلى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر، فضاقت الميرة، وقلت الأقوات على الفرنج ، فطلبوا الأمان ليسلموا الحصن ، فأجابهم أبو سعيد إليه ، وأمنهم ، وتسلم الحصن ، ورحل الفرنج في البحر عائدين إلى بلادهم ، فكان ملكهم المرية مدة. عشر سنين .

ذكر غزو صاحب طبرستان الِإسماعيلية

في هذه السنة، جمع شاه مازندران رستم بن علي بن شهريار عسكره ، وسار،ولم يُعلم أحداً جهة مقصده ، وسلك المضايق ، وجد السير إِلى بلد الموت ، وهي للإسماعيلية ، فأغار عليها ، وأحرق القرى والسواد ، وقتل فأكثر، وغنم أموالهم ، وسبى نساءهم ، واسترق أبناءهم ، فباعهم في السوق ، وعاد سالماً غانماً، وانخذل الإسماعيلية، ودخل عليهم من الوهن ما لم يصابوا بمثله ، وخرب من بلادهم ما لا يعمر في السنين الكثيرة.

ذكر أخذ حجاج خراسان

في هذه السنة في ربيع الأول ، سار حجاج خراسان ، فلما رحلوا عن بسطام ، أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية قد قصدوا طبرستان ، فأخذوا من أمتعتهم وقتلوا نفرا منهم ، وسلم الباقون ، وساروا من موضعهم ، فبينما همٍ سائرون ، إذ طلع عليهم الإسماعيلية ، فقاتلهم الحجاج قتالاً عظيماً ، وصبروا صبراً عظيماً ، فَقُتِل أميرهم ، فانخذلوا ، وألقوا بأيديهم ، واستسلموا ، وطلبوا الأمان ، وألقوا أسلحتهم مستأمنين ، فأخذهم الإسماعيلية، وقتلوهم ولم يبقوا منهم إلا شرذمة يسيرة، وقُتِل فيهم من الأئمة العلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير، وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الإسلام ، وخصت خراسان ، ولم يبق بلد إلا وفيه المأتم ، فلما كان الغد طاف شيخ في القتلى والجرحى ينادي : يا مسلمون ، يا حجاج ذهب الملاحدة، وأنا رجل مسلم ، فمن أراد الماء سقيته ، فمن كلمه قتله ، وأجهز عليه ، فهلكوا أجمعين إلا من سلم وولى هارباً - وقليل ما هم .

ذكر الحرب بين المؤيد والأمير إيثاق

قد ذكرنا تقدم الأمير أي أبه ، مملوك السلطان سنجر، وتقدمه على عساكر خراسان ، فحسده جماعة من الأمراء، منهم الأمير إيثاق وهو من الأمراء السنجرية، وانحرف عنه ، وكان تارة يقصد خوارزمشاه ، وتارة مازندران ، وتارة يظهر الموافقة للمؤيد ، ويبطن المخالفة ، فلما كان الآن ، فارق مازندران ومعه عشرة آلاف فارس ، قد اجتمع معه كل من يريد الغارة على البلاد، وكل منحرف عن المؤيد، وقصد خراسان ، وأقام بنواحي نسا وأبيورد لا يظهر المخالفة للمؤيد بل يراسله بالموافقة والمعاضدة له ، ويبطن ضدها، وانتقل المؤيد من المكاتبة إلى المكافحة، وسار إليه جريدة، فأغار عليه ، وأوقع به ، فتفرق عنه جموعه ، ونجا بحُشاشة نفسه ، وغنم المؤيد وعسكره كل ما لإيثاق ، ومض منهزماً إلى مازندران ، وكان ملكها رستم بينه وبين أخ له اسمه على تنازع على الملك ، وقد قوي رستم ، فلما وصل إيثاق إلى مازندران قتل عليّاً وحمل رأسه إلى أخيه رستم ، فعظم ذلك على رستم ، واشتد ، واستشاط غضباً، وقال : آكل لحمي ولا اطعمه غيري ، ولم يزل ايثاق يتردد في خراسان بالنهب والغارة ، لا سيما مدينة اسفراين ، فإنّه أكثر من قصدها حتى خربت ، فراسله السلطان محمود بن محمد والمؤيد، يدعوانه إلى الموافقة ، فسار إليه في العساكر، فلما قارباه ، أتاهما كثير من عسكره ، فمضى من بين أيديهما إلى طبرستان ، في صفر، سنة ثلاث وخمسين ، فتبعاه في عساكرهما ، فأرسل شاه مازندران يطلب الصلح، فأجابه ،واصطلحوا ، وحمل شاه مازندران أموالاً جليلة وهدايا نفيسة ، وسير إيثاق ا ابنه رهينة ، فعاد عنه .

ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزي

كان سنقر العزيزي من أمراء السلطان سنجر، وممن يناوي أيضاً المؤيد أي أبه ،

فلما اشتغل المؤيد بحرب إيثاق ، سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد إلى عراة، ودخلها وبها جماعة من الأتراك ، وتحصن بها، فأشير عليه بأن يعتضد بالملك الحسين مِلك الغورية، فلم يفعل ، واستبد بنفسه منفرداً لأنه رأى اختلاف الأمراء على السلطان محمود بن محمد، فطمع ، وحدث

نفسه بالقوة، فقصده المؤيد إِلى هراة ه فلما وصل إليها قاتل من بها شيئاً من قتال ، ثم إن الأتراك مالوا إلى المؤيد ، وأطاعوه ، وانقطع خبر سنقر العزيزي من ذلك الوقت ، ولم يعلم ما كان منه ، فتيل إنه سقط عن فرسه

فمات ، وقيل بل اغتاله الأتراك فقتلوه ، وتقدم السلطان محمود إلى ولاية هراة في عساكره وجنوده ، والتحق جماعة من عسكر سنقر بالأمير إيثاق ، وأغاروا على طوس وقراها ، فبطلت الزروع والحرث ، واستولى الخراب على البلاد، وعمت الفتن أطراف خراسان ، وأصابهم العين ، فإنهم كانوا أيام السلطان سنجر في أرغد عيشٍ ، وأمنه ، وهذا دأب الدنيا لا يصفو نعيمها وخيرها من كدر وشوائب وآفات ، وقلما يخلص شرها من خير، فنسأل الله أن يحسن لنا العون والعقبى بمحمد وآله .

ذكر ملك نور الدين بعلبك

في هذه السنة، ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها، وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعي ، منسوب إلى بقاع بعلبك ، وكان قد ولاه إياها صاحب دمشق ، فلما ملك نور الدين دمشق ، امتنع ضحاك بها، فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج ، فتلطف الحال معه إلى الآن ، فملكها ، واستولى عليها .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، قلع الخليفة المقتفي لأمر الله باب الكعبة، وعمل عوضه باباً مصفحاً بالنقرة المذهبة ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً. يدفن فيه إذا مات .

وفيها، توفي محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت أبو بكر الخجندي ، رئيس اصحاب الشافعي بأصبهان ،وسمع الحديث بها في أبي علي الحداد، وكان صدراً مقدماً عند السلاطين ، وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض ، ووقعت لموته فتنة عظيمة بأصفهان ، وقتل فيها خلق كثير.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد، أكلت فيه سائر الدواب حتى الناس ، وكان بنيسابور طباخ ، فذبح إنساناً علوياً، وطبخه ، وباعه في الطبيخ ، ثم ظهر عليه أنه فعل ذلك ، فقُتِل ، وأسفر الغلاء ، وصلحت أحوال الناس .

وفيها، توفي القاضي أبو العباس أحمد بن بختيار بن علي المايد أي الواسطي ، قاضيها وكان فقيهاً عالماً .

وفيها ، في ربيع الآخر، توفي القاضي برهان الدين ابو القاسم منصور بن أبي سعد محمد بن أبي نصر أحمد الصاعدي ، قاضي نيسابور، وكان مِن أئمة الفقهاء الحنفية .

ثم دخلت سنة ثلاث

وخمسين وخمسمائة

ذكر الحرب بين سنقر وأرغش

في هذه السنة، كان حربٌ شديدةٌ بين سنقر الهمذاني وأرغش المسترشدي ، وسببها، أن سنقر الهمذاني كان قد نهب سواد بغداد بطريق خراسان ، وكَثُر جمعه ، فخرج الخليفة المقتفي لأمر الله في جمادى الأولى، بنفسه يطلبه ، فلما وصل إلى بلد اللحف ، قال له الأمير خطلوبرس : أنا أكفيك هذا المهم ، وكان بينه وبين سنقر مودة ، فركب إليه ، وتلاقيا، وجرى بينهما عتاب طويل لأجل خروجه عن طاعة الخليفة، فأجاب سنقر إلى الطاعة ، وعاد خطلوبرس ، وأصلح حاله ، فأقطعه بلد اللحف والأمير أرغش المسترشدي ، فلما توجها إلى اللحف ، جرى ببينهما منازعة ، فأراد سنقر قبض أرغش ، فراه محترزاً فتحاربا واقتتلا قتالًا شديد اً ، وغدر بأرغش أصحابه ، فعاد منهزماً إلى بغداد، وانفرد سنقر ببلد اللحف ، وخطب فيه للملك محمد، فسير من بغداد عسكراً لقتاله ، مقدمهم خطلوبرس ، فجرت بينهما حربٌ شديدة، أنهزم في آخرها سنقر، وقتِلت رجاله ، ونُهبت أمواله التي في العسكر، وسار هو إلى قلعة الماهكي ، وأخذ ما كان له فيها واستخلف فيها بعض غلمانه ، وسار هو إلى همذان ، فلم يلتفت إليه الملك محمد شاه فعاد إلى قلعة الماهكي .

ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطاني

في هذه السنة، أيضاً، كان قتال بين شملة، صاحب خوزستان ومعه ابن مكلية،

وبين قايماز السلطاني ، في ناحية بادرايا ، فجمعا عسكرهما ، وسارا إليه ، فأتاه الخبر بذلك وهو يشرب ، فلم يحفل بذلك ، وركب اليهم في نحو ثلاثمائة فارس ، وكان معجباً بنفسه ، فحمل عليهم ، واختلط بهم ، فأحدقوا به ، وقاتل أشد قتال ، فانهزم أصحابه ، وأُخِذَ هو أسيراً، فتسلمه إنسان تركماني كان له عليه دم ، لأنه قتل ابنا

للتركماني ،فقتله بابنه ، وأرسل برأسه إلى محمد شاه ، وأرسل الخليفة عسكراً ليقاتل شملة ومن معه فانزاحوا من بين أيديهم ، ولحقوا بالملك ملكشاه بخوزستان فهلك كثير منهم بالبرد .

ذكر معاودة الغّز الفتنة بخراسان

كان الأتراك الغزية قد أقاموا ببلْخ ، واستوطنوها، وتركوا النهب والقتل ببلاد خراسان ، واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان خاقان محمود بن محمد أرسلان ، وكان المتولي لأمور دولته ، المؤيد أي أبه ، وعن رأيه يصدر محمود ، فلما كان هذه السنة في شعبان سار الغز من بلْخ إلى مرْو ، وكان السلطان محمود بسرخس في العساكر، فسار المؤيد في طائفة من العسكر إليهم ، فأوقع بطائفة منهم ، وظفر بهم ، ولم يزل يتبعهم ، إلى أن دخلوا إلى مرْو أوائل رمضان ، وغنم من أموالهم ، وقتل كثيراً وعاد الى سرخس ، فاتفقا هو والسلطان محمود على قصد الغز وقتالهم ، فجمعا العساكر، وحشدا ، وسارا إلى الغز فالتقوْا سادس شوال ، من هذه السنة ، وجرت بينهم حربٌ طال مداها، فبقوْا يقتتلون من يوم الاثنين سابع شوال ، إلى نصف الليل من ليلة الاربعاء، الحادي عشر من الشهر، تواقعوا عدة وقعاتٍ متتابعة ، ولم يكن بينهما راف ، ولا نزول إلا لما لا بد منه ، انهزم الغز فيها ثلاث دفعات ، وعادوا إلى الحرب ، فلما أسفر الصبح يوم الأربعاء ، انكشفت الحرب عن هزيمة عساكر خراسان ، وتفرقهم في البلاد ، وطفر الغز بهم ، وقتلوا فاكثروا فيهم ، وأما الجرحى والأسرى فأكثر من ذلك ، وعاد المؤيد ومن سلم معه إلى طوس ، فاستولى الغز على مرْو، وأحسنوا السيرة، وأكرموا العلماء والأئمة ، مثل تاج الدين أبي سعد السمعاني ، وشيخ الإسلام علي البلْخي ، وغيرهما، وأغاروا على سرخس ، وخُربت القرى، وجلى أهلها ، وقُتِل من أهل سرخس نحو عشرة آلاف قتيل ، ونهبوا طوس أيضاً، وقتلوا أهلها إلا القليل ، وعادوا إلى مرْو.

وأما السلطان محمود بن محمد الخان ، والعساكر التي معه ، فلم يقدروا على المقام بخراسان من الغز، فساروا إلى جرجان ينتظرون ما يكون من الغز.

فلما دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة، أرسل الغز إلى السلطان يسألونه أن يحضر عندهم ليملكوه أمرهم ، فلم يثق بهم ، وخافهم على نفسه ، فأرسلوا يطلبون منه ابنه جلال الدين عمر ليملكوه أمرهم ، ويصدروا عن أمره ونهيه ، في قليل الأمور وكثيرها ، وترددت

الرسل واحتاط السلطان محمود لولده بالعهد والمواثيق ، وتقرير القواعد ، ثم سيره من جرجان إلى خراسان ، فلما سمع الأمراء الغزية بقدومه ، ساروا من مرْو إلى طريقه ، فالتقوه بنيسابور، وأكرموه ، وعظموه ، ودخل نيسابور، واتصلت به العساكر الغزية ، واجتمعوا عنده في الثالث والعشرين من ربيع الآخر، سنة أربع وخمسين وخمسمائة، ثم إنّ السلطان محموداً سار من جرجان إلى خراسان في الجيوش التي معه من الأمراء السنجرية ، وتخلف عنه المؤيد أي أبَه ، فوصل إلى حدود نسا وأبيورد، وأقطع نسا لأمير اسمه عمر بن حمزة النسوي ، فقام في حفظها المقام المرضي ، ومنع عنها أيدي المفسدين ، وأقام السلطان محمود بظاهر نسا حتى انسلخ جمادى الآخرة من السنة . ولما كان الغز بنيسابور هذه السنة ، أرسلوا إلى طوس يدعونهم الى الطاعة والموافقة ، فامتنع أهل راذكان من اجابتهم إلى ذلك ، واغتروا بسور بلدهم ، وبما عندهم من الشجاعة والقوة والعدة الوافرة ، والذخائر الكثيرة ، فقصدها طائفة من الغز، وحصروهم ، وملكوا البلد ، وقتلوا فيه ، ونهبوا وأكثروا ، ثم عادوا إلى نيسابور وساروا مع جلال الدين محمد ابن السلطان محمود الخان إلى بيهق ، وحصروا سابزوار سابع عشر جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وخمسمائة فامتنع أهلها عليهم ، وقام بأمرهم النقيب عماد الدين علي بن محمد بن يحيى العلوي الحسيني ، نقيب العلويين ، واجتمعوا معه ، ورجعوا إلى أمره ونهيه ، ووقفوا عند إشارته ، فامتنعوا على الغز، وحفظوا البلد منهم ، وصبروا على القتال ، فلما رأى الغز امتناعهم عليهم ، وقوتهم ، أرسلوا إليهم يطلبون الصلح ، فاصطلحوا ،ولم يقتل ،من أهل سابزوار، في تلك الحروب ، غير رجل واحد ، ورحل الملك جلال الدين والغز عن سابزوار في السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وساروا إلى نَسَا وأَبِيوَرْد(1) . .

ذكر أسر المؤيد وخلاصه

قد ذكرنا أن المؤيد أي أبه تخلف عن السلطان ركن الدين محمود بن محمد بجرجان ، فلما كان الآن ، سار من جرجان إلى خراسان ، فنزل بقرية من قرى

(ا) نسا : مدينة بخراسان ، بينها وبين سَرخس يومان ، وبينها وبين مرو خمسة أيام . وأبيورد : بفتح أوله وكسر ثانيه وياء ساكنة وفتح الواو وسكون الراء وداء مهملة، مدينة بخراسان بين سرخس ونسا، وَبِئَة، رديئة الماء.

خبوشان ، اسمها زانك ، وبها حصن ، فسمع الغز بوصوله إلى زانك ، فساروا إليه ، وحصروه فيه ، فخرج منه هارباً، فرآه واحد من الغز، فأخذه ، فوعده بمال جزيل إنْ أطلقه ، فقال الغزي : وأين المال ؟ فقال : هو مودع في بعض هذه الجبال ، فسار هو والغزي ، فوصلا إلى جدار قرية فيها بساتين وعيون ، فقال للفارس : المال ههنا ، وصعد الجدار، ونزل من طهره ، ومضى هارباً، فرأى الغز قد ملؤوا الأرض ، فدخل قرية، فعرفه طحان فيها، فأعلم زعيم القرية به ، وطلب منه مركباً، فأتاه بما أراد، وأعانه على الوصول إلى نيسابور، فوصل إليها، واجتمعت العساكر، وقوي أمره وعاد إلى حاله ، وأحسن إلى الطحان ، وبالغ في الإحسان إليه .

ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغز وعودهم إلف نيسابور

لما عاد الغز، ومعهم محمد بن محمود الخان ، إلى نيسا وأبيورد– كما ذكرناه – خرج والده ، السلطان محمود الخان ، وكان هناك قيمن معه من العساكر الخراسانية، فاجتمع بهم ، واتفقت الكلمة على طاعته ، وأراد عمارة البلاد ، وحفظها ، فلم يقدر على ذلك ، فلما اجتمعوا ، ساروا إلى نيسابور، وبها المؤيد أي أبه ، في شعبان ، فلما سمع بقربهم منه ، رحل عنها، إلى خواف في سادس عشرة، ووصلوا إليها في الحادي والعشرين منه ، ونزلوا فيه ، وخافهم الناس خوفاً عظيماً ، فلم يفعلوا بهم شيئاً، وساروا عنها في السادس والعشرين منه ، إلى سرخس ومرْو، وكان بها الفقيه المؤيد بن الحسين الموفقي ، رئيس الشافعية، وله بيتٌ قديم ، وهو من أجناد الإمام أبي سهل الصعلوكي ، وله مصاهرة إلى بيت أبي المعالي الجويني ، وهو المقدم في البلد والمشار إليه ، وله من الأتباع ما لا يُحصى ، فاتفق أن بقض أصحابه قتل إنساناً من الشافعية اسمه أبو الفتوح الفستقاني خطأ، وهذا أبو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابور، وهو ذخر الدين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني ، وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور، فغضب من ذلك ، وأرسل إلى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتل ليقتص منه ، ويتهدده إنْ لم يفعل ، فامتنع المؤيد من تسليمه ،

وقال :لا مدخل لك مع اصحابنا، إنما حكمك على الطائفة العلويين ، فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه ، وقصد الشافعية، فاجتمعوا له ، وقاتلوه ، فقتل منهم جماعة ، ثم إن النقيب أحرق سور العطارين ، وأحرقوا سكة معاد أيضاً، وسكة باغ طاهر، ودار إمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، وكان

الفقّيه المؤيد الشافعي بها للصهر الذي بينهم . وعظُمت المصيبة على كافة الناس ، وجمع بعد ذلك المؤيد الفقيه جموعاً من طوس واسفراين وجوين وغيرهم ، وقتلوا واحداً من اتباع النقيب زيد، يعرف بابن الحاجي الأشناني ، فأهم العلوية ومن معهم فاقتتلوا ثامن عشر شوال ، من سنة أربع وخمسين ، وقامت الحرب على ساق ، وأحرقت المدارس والأسواق والمساجد وكَثُر القتل في الشافعية ، فالتجأ المؤيد الشافعي ، في شرذمة إلى قلعة فرخك ، وقَصُر باع الشافعية عن القتال ، ثم انتقل المؤيد إِلى قرية من قرى طوس ، وبطُلت دروس الشافعية بنيسابور، وخَرُب البلد وكَثُر القتل فيه .

ذكر حصر صاحب حتلان ترمذ وعوده وموته

في هذه السنة ، في رجب ، سار الملك أبو شجاع فرخشاه ، وهو يزعم أنه من أولاد بهرام جور، وقد تقدم ذكره أيام كسرى أبرويز إلى ترمذ ، وحصرها ، وكان سبب ذلك ، انه كان في طاعة السلطان سنجر، فلما خرج عليه الغز، طلبه ليحضر معه حربه لهم ، فجمع عسكره ، وأطهر أنّه واصل فيمن عنده من العساكر إليه ، وأقام ينتظر ما يكون منه ، فإن ظفر حضر، وقال له : سبقتني بالحرب ، وإن كان الظفر للغز، قال لهم : إنّما تأخرت محبة وإرادة أن تملكوا ، فلمّا انهزم سنجر– وكان ما ذكرناه – بقي إلى الآن ، فسار إلى ترمذ ليحصرها، فجمع صاحبها فيروزشاه أحمد بن أبي بكر بن قماج عسكره ، ولقيه ليمنعه ، فاقتتلوا فانهزم فيروزشاه ، ومض منهزماً لا يلوي على شيء ، فأصابه في الطريق قولنج ، فمات منه.

ذكر عود المؤيد إلى نيسابور وتخريب ما بقي منها

في هذه السنة عاد المؤيد أي أبه إلى نيسابور في عساكره ، ومعه الإمام المؤيد الموفقي الشافعي – الذي تقدم ذكر الفتنة بينه وبين ذخر الدين نقيب العلويين ، وخروجه من نيسابور– فلما خرج منها صار مع المؤيد، وحضر مع المؤيد، وحضر معه حصار نيسابور، وتحصن النقيب العلوي بشارستان ، واشتد الخطب ، وطال الحرب ، وسُفكت الدماء ، وهُتكت الأستار، وخربوا ما بقي من نيسابور من الدور وغيرها ،

وبالغ الشافعية ومن معهم من الانتقام ، فخربوا المدرسة الصندلية لأصحاب أبي حنيفة، وخربوا غيرها، وحصروا قهندز، وهذه الفتنة استأصلت نيسابور، ثم رحل المؤيد أي أبه عنها الى بيهق ، في شوال ، من سنة أربع وخمسين وخمسمائة كان ينبغي أن تكون هذه

الحوادث الغزية الواقعة في سنة أربع وخمسين ، مذكورة في سنتها ، وإنما قدمناها ههنا ليتلو بعضها بعضاً، فيكون أحسن لسياقتها .

ذكر ملك ملكشاه خوزستان

في هذه السنة ، ملك ملكشاه ابن السلطان محمود بلد خوزستان ، وأخذه من شملة التركماني ، وسبب ذلك ، أنّ الملك محمد ابن السلطان محمود، لما عاد مِنْ حصار بغداد – كما ذكرناه – مرض ، وبقي مريضاً بهمذان ، ومضىِ أخوه ملكشاه إلى قم وقاجان وما والاها ، فنهبها جميعها، وصادر أهلها ، وجمع أموالاً كثيرةً ، فراسله أخوه محمد شاه يأمره بالكفِّ عن ذلك ليجعله ولي عهده في الملك ، فلم يفعل ، ومضى إلى أصفهان ، فلما قاربها أرسل رسولاً إلى ابن الخجندي وأعيان البلد في تسليم البلد إليه فامتنعوا من ذلك ، وقالوا لأخيك في رقابنا يمين ، ولا نغدر به ، فحينئذ شرع ملكشاه في الفساد، والمصادرة لأهل القرى، فلما سمع محمد شاه الخبر سار عن همذان ، وعلى مقدمته كردبازوه الخادم ، فتفرقت جموع ملكشاه عند فرسيسين ، فلحق به قويدان ، وكان قد فارق المقتفي لأمر الله ، واتفق مع سنقر الهمذاني ، فلحق كلاهما به ، وحسّنا له قصد بغداد، فسار عن بلد خوزستان إلى واسط ، ونزل بالجانب الشرقي ، وهم على غاية الضر من الجوع ، فنهبوا القرى نهباً فاحشاً، ففتح بثق بتلك الناحية، فغرق منهم كثير، ونجا ملكشاه ومن سلم معه ، وساروا إلى خوزستان ، فمنعه شملة من العبور، فراسله ليمكنه من العبور إلى أخيه الملك محمد شاه ، فلم يجبه إلى ذلك ، وكاتب حينئذ الأكراد الكر الذين هناك ، واستدعاهم إليه ، ففرحوا به ، ونزل اليه من تلك الجبال خلق كثير، فأطاعوه ، فرحل ونزل على كرخانا ، وطلب من شملة الحرب ، فألان له شملة القول ، وقال : أنا أخطب لك ، وأكون معك ، فلم يقبل منه ، فاضطر شملة إلى الحرب ، فجمع عسكره ، وقصده ، فلقيه ملكشاه ومعه سنقر الهمذاني وقويدان وغيرهما ، من الأمراء ، فاقتتلوا، فانهزم شملة، وقُتِل كثير من أصحابه ، وصعد إلى قلعته

دندرزين ، وملك ملكشاه البلاد، وجبى الأموال الكثيرة، وأظهر العدل . وتوجه إلى أرض فارس .

ذكر الحرب بين التركماني والإِسماعيلية بخراسان

كان بنواحي قهستان طائفة من التركمان ، فنزل اليهم جمع من الإِسماعيلية من قلاعهم ، وهم ألف ، وسبعمائة ، فأوقعوا بالتركمان ، فلم يجدوا الرجال ، وكانوا قد فارقوا

بيوتهم ، فنهبوا الأموال ، وأخذوا النساء والأطفال ، وأحرقوا ما لم يقدروا على حمله ه وعاد التركمان ، فرأوا ما فعل بهم ، فتبعوا أثر الإسماعيلية، فأدركوهم وهم يقتسمون الغنيمة، فكبروا، وحملوا عليهم ، ووضعوا فيهم السيف ، فقتلوهم كيف شاؤوا، حق أفنوهم قتلاً وأسراً، ولم ينج الا تسعة رجال لا غير.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، كَثُر فساد التركمان ، أصحاب ترجم الإيوائي بالجبل فسير إليهم من بغداد عسكر، مقدمهم منكبرس المسترشدي ، قلما قاربهم ، اجتمع التركمان فالتقُوا ، واقتتلوا هم ومنكبرس ، فانهزم التركمان أقبح هزيمة ، وقتل بعضهم وأسر بعض ، وحملت الرؤوس والأسارى إلى بغداد .

وفيها، حج الناس ، فلما وصلوا إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وصل لهم الخبر أن العرب قد اجتمعت لتأخذهم ، فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر، فوجدوا مشقة شديدة، ونجوا من العرب .

وفيها، توفي الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحراني ، ومولده بحران سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وأقام ببغداد وكَثُر ماله ، وصدقاته أيضاً، وكان يقرأ القرآن ، وهو والد ظهير الدين ، الذي حكم في دولة المستضيء بأمر الله ، – على ما نذكره إن شاء الله .

وفيها، توفي أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي ببغداد، وهو سجزي الأصل ، هروي المنشأ، وكان قدم إلى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، يريد الحج ، فسمع الناص بها عليه صحيح البخاري ، وكان عالي الإسناد، فتأخر لذلك عن الحج ، فلما كان هذه السنة، عزم على الحج فمات .

وقيها، توفي يحيى بن سلامة بن الحسن بن محمد الفضل الحصكفي ، الأديب ، بميافارقين ، وله شعرٌ حسن ، ورسائل جيدة مشهورة، وكان يتشيع ، ومولده بطَنزَة(1)، فمن شعره :

(١) طنزة: بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر.

1 وخليعٌ بث أعذله ... ويرى عذلي مِنَ العبثِ

2 قلتُ إن الخمرَ مخبثةٌ ... قالَ : حاشاها مِنَ الخبثِ

3 قلت : فالأرفاث تتبعُها ... قال : طيبُ العيشِ في الرفثِ

4 قلت : منها القي ، قال : أجلٌ ... شَرَفت عَنْ مخرجِ الحدثِ

5 وسأسلوها، فقلتُ متى؟ ... قال عند الكون قي الحدثِ

ثم دخلت سنة اربع وخمسين وخمسمائة

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وملكه جميع أفريقية

قد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ملك الفرنج مدينة المهدية من صاحبها الحسن بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي ، وذكرنا أيضاً سنة إحدى وخمسين، ما فعله الفرنج بالمسلمين في زويلة المجاورة للمهدية، من القتل والنهب ، فلما قتلهم الفرنج ، ونهبوا أموالهم ، هرب منهم جماعة ، وقصدوا عبد المؤمن ، صاحب المغرب – وهو بمراكش – يستجيرونه ، فلما وصلوا إليه ، ودخلوا عليه ، أكرمهم ، وأخبروه بما جرى على المسلمين ، وأنه ليس في ملوك الإِسلام من يُقصد سواه ، ولا يكشف هذا الكرب غيره ، فدمعت عيناه ، وأطرق ، ثم رفع رأسه ، وقال : أبشروا لأنصرنّكم ، ولو بعد حين ، وأمر بإنزالهم ، وأطلق لهم ألفي دينار، ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج إليه العساكر في السفر، وكتب إلى جميع نوابه في الغرب ، وكان قد ملك إلى قريب تونس ، يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلّات ، وأن يترك في سنبله ، ويخزن في مواضعه ، وأن يحفروا الآبار في الطرق ، ففعلوا جميع ما أمرهم به ، وجمعوا الغلات ثلاث سنين ، ونقلوها إلى المنازل ، وطينوا عليها، فصارت كأنها تلال فلما كان في صفر، من هذه السنة، سار عن مراكش ، – وكان أكثر أسفاره في صفر– فسار يطلب أفريقية ، واجتمع من العساكر مائة ألف مقاتل ، ومن الأتباع والسوقة أمثالهم ، وبلغ من حفظه لعساكره ، أنهم كانوا يمشون بين الزروع ، فلا تتأذى بهم سنبلة ، لاذا نزلوا صلوا جميعهم مع إمام واحد ، بتكبيرة واحدة، لا يتخلف منهم أحد كائناً من كان ، وقدم بين يديه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي ، وكان صاحب المهدية وأفريقية – وقد ذكرنا سبب مصيره عند عبد المؤمن – فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس ، في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، من السنة ، وبها صاحبها أحمد بن خراسان ، وأقبل اسطوله في البحر، في سبعين شينيا وطريدة

وشلندي ، فلما نازلها ، أرسل إلى أهلها يدعوهم الى طاعته ، فامتنعوا ، فقاتلهم من الغد أشذ قتال ، فلم

يبق إلا أخذها، ودخول الأسطول إليها، فجاءت ريح عاصف ، منعت الموحدين من دخول البلد، فرجعوا ليباكروا القتال ، ويملكوه ، فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلاً ، من أعيان أهلها ، إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم ، فأجابهم إلى الأمان لهم في أنفسهم ، وأهليهم ، وأموالهم ، لمبادرتهم إلى الطاعةَ ، وأمّا من عداهم من أهل البلد، فيؤمنهم في أنفسهم ، وأهاليهم ، ويقاسمهم على أموالهم ، وأملاكهم نصفين ، وأن يخرج صاحب البلد ، هو وأهله ، فاستقر ذلك ، وتسلم البلد ، وأرسل إليه من يمنع العسكر من الدخول ، وأرسل أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم ، وأقام عليها ثلاثة أيام ، وعرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى، فمن أسلم سَلِمَ ، ومن امتنع قُتِل ، وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم ، وسار عبد المؤمن منها إلى المهدية، والأسطول يحاديه في البحر، فوصل إليها ثامن عشر رجب ، وكأن حينئذ، بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان ، وقد أخلوا زويلة ، وبينها وبين المهدية غاية سهم ، فدخل عبد المؤمن من زويلة ، وامتلأت بالعساكر، والسوقة ، فصارت مدينة معمورة في ساعة، ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها، وانضاف إليه من صنهاجة ، والعرب ، وأهل البلاد ما يخرج عن الاحصاء ، وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها ، لحصانتها ، وقوة سورها، وضيق موضع القتال عليها ، لأن البحر دائر بأكثرها ، فكأنها كف قي البحر وزندها متصل بالبر، وكانت الفرنج تخرج شجعانهم إلى أطراف العسكر فتنال منه ، ويعودون سريعاً ، فأمر عبد المؤمن أن يُبْنى سورٌ من غرب المدينة ، لِمنعهم من الخروج ، وأحاط الأسطول بها في البحر، وركب عبد المؤمن في شيني ومعه الحسن بن علي ، الذي كان صاحبها، وطاف بها في البحر، فهاله ما رأى من حصانتها، وعلم أنها لا تفتح بقتال براً ، ولا بحراً، وليس لها إلا المطاولة، وقال للحسن : كيف نزلت عن مثل هني ا الحصن ؟ فقال : لقلة من يوثق به ، وعدم القوت ، وحكم القدر، فقال : صدقت ، وعاد من البحر، وأمر بجمع الغلات والأقوات ، وترك القتال ،فلم يمض غير قليل حتى صار

في العسكر كالجبلين ، من الحنطة والشعير، فكان من يصل إلى العسكر من بعيد يقولون : متى حدثت هذه الجبال ؟ فيقال لهم : هي حنطه وشعير، فيتعجبون من ذلك ، وتمادى الحصار، وفي مدته أطاع سفاقس عبد المؤمن ، ومدينة طرابلس ، وجبال نفوسة ، وقصور أفريقية ،وما والاها ، وفتح مدينة قابس بالسيف ، وسير ابنه أبا محمد عبدالله ني جيش ، ففتح بلاداً، ثم إن أهل مدينة

قفصة لما رأوا تمكن عبد المؤمن ، أجمعوا على المبادرة إلى طاعته ، وتسليم المدينة إليه ، فتوجه صاحبها يحص بن تميم بن المعز ومعه جماعة من أعيانها، وقصدوا عبد المؤمن ، فلما أعلمه حاجبه بهم ، قال له عبد المؤمن : قد اشتبه عليك ، ليس هؤلاء أهل قفصة، فقال له : لم يشتبه عليّ ، قال له عبد المؤمن : كيف يكون ذلك ، والمهدي يقول إن أصحابنا يقطعون أشجارها ، ويهدمون أسوارها ، ومع هذا فتقبل منهم ، وتكف عنهم { ليقضي الله أمراً كان مفعولاً }(ا) فأرسل إليهم طائفة من أصحابه ، ومدحه شاعر منهم بقصيدة أولها :

ما هزَ عطفيه بين البيضِ والأسل   مثل الخلجة عبد المؤمن بن علي

فوصله بألف دينار.

ولما كان في الثاني والعشرين من شعبان ، من السنة، جاء أسطول صاحب صقلية

في مائة وخمسين شينيا، غير الطرائد، وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الأندلس ، وقد سبى أهلها، وأسرهم ، وحملهم معه ، فأرسل إليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمجيء إلى المهدية فقدموا في التاريخ ، فلما قاربوا المهدية، حطوا شرعهم ليدخلوا المبنى ، فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن ، وركب العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر، فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة العساكر، ودخل الرعب قلوبهم ، وبقي عبد المؤمن يمرغ وجهه على الأرض ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر. واقتتلوا في البحر، فانهزمت شواني الفرنج ، وأعادوا القلوع ، وتبعهم المسلمون ، فأخذوا منهم سبع شواني ، ولو كان معهم شواني لأخذوا أكثرهم ، وكان أمراً مجيباً ، وفتحاً قريباً، وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً ، وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ، ويئس أهل المهدية حينئذ من النجدة، وصبروا على الحصار ستة أشهر إلى آخر شهر ذي الحجة من السنة ، فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة، وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم ، وأموالهم ، ليخرجوا منها ويردوا إلى بلادهم ،

وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل ، فعرض عليهم الإسلام ، ودعاهم إليه فلم يجيبوا، ولم يزالوا يترددون إليه أياماً بالكلام اللين ، فأجابهم إلى ذلك ، وأمنهم ، وأعطاهم سفناً، فركبوا فيها، وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم ، ولم يصل منهم إلى صقلية إلا النفر اليسير، (1)

الأنفال 42 .

وكان صاحب صقلية قد قال : إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية، وأخذنا حرمهم ، وأموالهم ، فأهلك الله الفرنج غرقاً، وكان مدة ملكهم المهدية اثنتي عشر سنة.

ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء من المحرم ، سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وسماها عبد المؤمن سنة الأخماس ، وأقام بالمهدية عشرين يوماً، فرتب أحوالها ، وأصلح ما انثلم من سورها ، ونقل إليها الذخائر من الأقوات ، والرجال والعدد، واستعمل عليها بعض أصحابه ، وجعل معه الحسن بن علي ، الذي كان صاحبها، وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله ، وأقطع الحسن بها أقطاعاً، وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها، وكذلك فعل بأولاده ،ورحل من المهدية أول صفر من السنة إلى بلاد الغرب .

ذكر إيقاع عبد المؤمن بالعرب

لما فرغ عبد المؤمن من أمر المهدية، وأراد العود إلى الغرب ، جمع أمراء العرب من بني رياح ، الذين كانوا بافريقية، وقال لهم : قد وَجبت علينا نصرة الإسلام ، فإن المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس ، واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين ، وما يقاتلهم أحد مثلكم ، فبكم فُتِحت البلاد أول الإسلام ، وبكم يُدْفع عنها العدو الآن ، ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة، يجاهدون في سبيل الله ، فأجابوا بالسمع والطاعة، فحلفهم على ذلك بالله تعالى وبالمصحف ، فحلفوا ومشوا معه إلى مضيق جبل زغوان ، وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك ، وهو من أمرائهم ، ورؤوس القبائل فيهم ، فجاء إلى عبد المؤمن بالليل ، وقال له ، سراً ، إن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس ، وقالوا : ما غرضه إلا إخراجنا من بلادنا ، وأنهم لا يفون بما حلفوا عليه ، فقال : يأخذ الله عز وجل الغادر، فلما كان الليلة الثانية، هربوا إلى عشائرهم ودخلوا البر، ولم يبق منهم إلا يوسف بن مالك ، فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ، ولم يحدث عبد المؤمن في أمرهم شيئاً، وسار مغرباً

يحث السير حتى قرب من القسطنطينية، فنزل في موضع مخصب يقال له وادي النساء، والفصل ربيع والكلأ مستحسن ، فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتة، ودام كذلك عشرين يوما ، فبقي الناس في جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبراً ،مع كثرتِه وعظمه ، ويقولون : ما أزعجه ، إلا خبر وصله من الأندلس ، فحث لأجله في السير، فعادت العرب ، الذين جفلوا منه ، من البرية إلى البلاد لما أمنوا جانبه ، وسكنوا

البلاد التي ألفوها، واستقروا في البلاد، فلما علم عبد المؤمن برجوعهم ، جهز إليهم ولديه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحدينٍ وشجعانهم ، فجدوا السير، وقطعوا المفاوز، فما شعر العرب إلا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم ، من جهة الصحراء، ليمنعوهم الدخول إليها إِن راموا ذلك ، وكانوا قد نزلوا جنوباً من القيروان ، عند جبل يقال له جبل القرن ، وهم زهاء ثمانين ألف بيت ، والمشاهير من مقدميهم أبو محفوظ محرز بن زياد، ومسعود بن زمام البلاط ، وجبارة بن كامل وغيرهم ، فلما أطلت عساكر عبد المؤمن عليهم ، اضطربوا واختلفت كلمتهم ، ففر مسعود، وجبارة بن كامل ومن معهما من عشائرهما، وثبت محرز بن زياد، وأمرهم بالثبات والقتال ، فلم يلتفتوا إليه ، فَثَبُت هو ومن معه من جمهور العرب ، فناجزهم الموحدون القتال في العشر الأوسط من ربيع الآخر من السنة ، وثبت الجمعان ، واشتد العراك ، فاتفق أن محرز بن زياد قُتِل ، ورُفِع رأسه على رمح ، فانهزمت جموع العرب عند ذلك ، وأسلموا البيوت ، والحريم ، والأولاد ، والأموال ، وحُمِل جميع ذلك إلى عبد المؤمن ، وهو بذلك المنزل ، فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائح ، وحملهن معه تحت الحفظ والبر والصيانة إلى بلاد الغرب ، وفعل معهن مثل ما فعل في حريم الأبثج ، ثم اقبلت إليه وفود رياح مهاجرين في طلب حريمهم ، كما فعل الأبثج ،فأجمل الصنيع لهم ، ورد الحريم إليهم ، فلم يبق منهم أحد إلا صار عنده ، وتحت حكمه ، وهو يخفض لهم الجناح ، ويبذل فيهم الإحسان ، ثم إنه جهزهم إلى ثغور الأندلس على الشرط الأول ، وجمعت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل قرن ، فبقيت دهراً طويلًا كالتل العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد، وبقيت أفريقية مع نواب عبد المؤمن آمنة، ساكنة، لم يبق فيها من أمراء العرب خارج عن طاعته ، إلا مسعود البلاط بن زمام وطائفته ، في أطراف البلاد .

ذكر غرق بغداد

في هذه السنة، ثامن ربيع الأخر، كَثُرت الزيادة في دجلة، وخرق القورج فوق بغداد ، وأقبل المد إلى البلد ، فامتلأت الصحارى، وخندق البلد ، وأفسد الماء السور، ففتح فيه فتحة، يوم السبت تاسع عشر الشهر، فوقع بعض السورعليها، فسدها، ثم فج الماء فتحة أخرى، وأهملوها ظناً أنها تنفس عن السور لئلا يقع ، فغلب الماء،

وتعذر سده ، فغرق قراح طغر، والأجمة ، والمختارة ، والمقتدية ، ودرب القبار، وخرابة ابن جردة ، والرياني وقراح القاضي ، وبقض القطيعة ، وبعض باب الأزج ، وبعض المأمونية ، وقراح أبي الشحم ، وبقض قراح ابن رزين ، وبقض الظفرية ، ودب الماء تحت الأرض إلى أماكن ، فوقعت ، وأخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربي ، فبلغت المعبرة عدة دنانير، ولم يكن يقدر عليها ثم نقض الماء وتهدم السور، وبقي الماء الذي داخل السور يدب في المحال التي لم يركبها الماء، فكثُر الخراب ، وبقيت المحال لا تعرف ،وإنما هي تلول ، فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين ، وأما الجانب الغربي ، فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل ، وغيرها من المقابر، وانخسفت القبور المبنية ، وخرج الموتى على رأس الماء ، وكذلك المشهد، والحربية، وكان أمراً عظيماً .

ذكر عود سنقر الهمذاني إلى اللحف وانهزامه

في هذه السنة ، عاد سنقر الهمذاني إلى أقطاعه ، وهو قلعة الماهكي وبلد اللحف ، وكان الخليفة قد أقطعه للأمير قايماز العميدي ومعه أربعمائة فارس ، فأرسل إليه سنقر يقول له : ارحل عن بلدي ، فامتنع ، فسار اليه ، وجرى بينهما قتالٌ شديد، انهزم فيه العميدي ، ورجع إلى بغداد ، بأسوأ حال ، فبرز الخليفة ، وسار في عساكره إلى سنقر، فوصل إلى النعمانية ، وسير العساكر مع ترشك ، ورجع إلى بغداد، ومضى ترشك نحو سنقر الهمذاني ، فتوغل سنقر في الجبال هارباً،ونهب ترشك ما وجد له ولعسكره من مال ، وسلاح ، وغير ذلك ، وأمر وزيره بقتل من رأى من أصحابه ، ونزل على الماهكي وحصرها أياماً ، ثم عاد إلى البندنيجين ، وأرسل إلى بغداد بالبشارة ، وأما سنقر فإنه لحق بملكشاه ، فاستنجده ، فسير معه خمسمائة فارس ، فعاد ونزل على قلعة هناك ، وأفسد أصحابه في البلاد، وأرسل ترشك إلى بغداد يطلب نجدة، فجاءته ، فأراد سنقر أن يكبس ترشك ، فعرف ذلك

فاحترز، فعدل سنقر إلى المخادعة ، فأرسل رسولاَ إلى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة، فاحتبس ترشك الرسول عنده ، وركب

فيمن خف من أصحابه ، فكبس سنقر ليلًا فانهزم هو وأصحابه وكَثُر القتل فيهم ، وغنم ترشك أموالهم ودوابهم وكل ما لهم ، ونجا سنقر جريحاً .

ذكر الفتنة بين عامة استراباذ

في هذه السنة، وقع ، في استراباذ، فتنة عظيمة بين العلويين ومن يتبعهم من الشيعة، وبين الشافعية ومن معهم ، وكان سببها أن الإمام محمد البزوي ، وصل إلى امشراباذ، فعقد مجلس الوعظ ، وكان قاضيها أبو نصر سعد بن محمد بن اسماعيل النعيم ، شافعي المذهب أيضاً ، فثار العلويون ومن يتبعهم من الشيعة ، بالشافعية ومن يتبعهم باستراباذ، ووقعت بين الطائفتين فتنة عظيمة، انتصر فيها العلويون ، فقتل من الشافعية جماعة ، وهرب القاضيِ ، ونُهِبت داره ودور من معه ، وجرى عليهم من الأمور الشنيعة ما لا حد عليه ، فسمع شَاه مازندران الخبر، فاستعظمه ، وأنكر على العلويين فعلهم ، وبالغ في الإنكار، مع أنه شديد التشيع ، وقطع عنهم جرايات كانت لهم ، ووضع الجبايات والمصادرات على العامة ، فتفرق كثير منهم ، وعاد القاضي إلى منصبه ، وسكنت الفتنة .

ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه

في هذه السنة، توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد، وهو الذي حاصر بغداد طالباً السلطنة وعاد عنها، فأصابه سل ، وطال به ، فمات بباب همذان ، وكان مولده في ربيع الآخر، سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلما حضره الموت ، أمر العساكر فركبت ، وأحضر أمواله وجواهره وحظاياه ومماليكه ، فنظر إلى الجميع ، من طيارة تشرف على ما تحتها ،فلما رآه ، بكى وقال : هذه العساكر، والأموال والمماليك ، والسراري ، ما أرى يدفعون عني مقدار ذرة ، ولا يزيدون في أجلِي لحظة ، وأمر بالجميع فرفع بعد أن فرق منه شيئاً كثيراً، وكان عظيماً، كريماً، عاقلاً، كثير التأني في أموره ، وكان له ولد صغير فسلمه إلى آقسنقر الأحمديلي ، وقال له : أنا أعلم أن الناس لا تطيع مثل هذا الطفل ، وهو وديعة عندك ، فارحل به إلى بلادك ، فرحل إلى

مراغة، فلما مات ، اختلفت الأمراء، فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه ، وطائفة طلبوا سليمان شاه ، وهم الأكثر، وطائفة طلبوا أرسلان الذي مع أيلدكز، فأما ملكشاه فإنه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة التركماني يدعوهما ، فوصل إلى أصفهان ، فسلمها إليه ابن

الخجندي ، وجمع له مالأ أنفقه عليه ، وأرسل إلى العساكر بهمذان يدعوهم إلى طاعته ، فلم يجيبوه ، لعدم الاتفاق بينهم ، ولأن اكثرهم كان يريد سليمان شاه .

ذكر أخذ حران من نور الدين وعودها إليه

في هذه السنة ، مرض نور الدين محمود بن زنكي ، صاحب حلب ، مرضاً شديدا ، أرجف بموته ، وكان بقلعة حلب ، ومعه أخوه الأصغر أميران ، فجمع الناس ، وحصر القلعة، وكان شيركوه ، وهو أكبر أمرائه بحمص ، فبلغه خبر موته ، فسار إلى دمشق ليتغلب عليها، وبها أخوه نجم الدين أيوب ، فأنكر عليه أيوب ذلك ، وقال : أهلكتنا، والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان قد مات فأنا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها، فعاد إلى حلب مجدا، وصعد القلعة وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس ، وكلمهم ، فلما رأوه حياً، تفرقوا عن أخيه أميران ، فسار إِلى حران فملكها ، فلما عوفي نور الدين ، قصد حران ليخلصها ، فهرب أخوه منه ، وترك أولاده بحران في القلعة، فملكها نور الدين وسلمها إلى زين الدين علي ، نائب أخيه قطب الدين ، صاحب الموصل ، ثم سار نور الدين ، بعد أخذ حران ، الى الرقة ، وبها أولاد أميرك الجاندار، وهو من أعيان الأمراء ، وقد توفي ، وبقي اولاده ، فنازلها، فشفع جماعة من الأمراء فيهم ، فغضب من ذلك ، وقال : هلا شفعتم في أولاد أخي لما أخذت معهم حران ، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء، فلم يشفعهم، وأخذها منهم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، مرض الخليفة المقتفي لأمر الله ، واشتد مرضه ، وعوفي ، فضربت البشائر ببغداد، وفرقت الصدقات من الخليفة ، ومن أرباب الدولة ، وغلق البلد أسبوعاً . وفيها عاد ترشك إلى بغداد ولم يشعر به أحد إلا وقد ألقى نفسه تحت التاج ، ومعه سيف ، وكفن ، وكان قد عصي على الخليفة ، والتحق بالعجم ، فعاد الأن ، فرضي عنه ، وأذن له في دخول دار الخلافة ، وأعطي مالاً .

رفيها، في جمادى الأولى ، أرسل محمد بن أنز، صاحب قهستان عسكر إلى بلد الإسماعيلية من الجبال ، فقتلوا كثيراً من العسكر، وأسروا الأمير الذي كان مقدماً

عليهم ، اسمه قيبة ، وهو صهر ابن أنز، فبقي عندهم أسيراً عدة شهور حتى زوج ابنته من رئيس الإسماعيلية، علي بن الحسن ، وخلص من الأسر.

وفيها توفي شرف الدين علي بن أبي القاسم منصور بن أبي سعد الساعدي ، قاضي نيسابور، في شهر رمضان ، وكان موته بالري ، ودفن في مقبرة محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب أبي حنيفة رضي الله عنهما، وكان القاضي حنفياً أيضاً .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة

ذكر مسير سليمان شاه إلى همذان

في هذه السنة، سار سليمان شاه من الموصل إلى همذان ، ليتولى السلطنة، وقد تقدم سبب قبضه وأخذه إلى الموصل وسبب مسيره إليها، أنّ الملك محمد ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما مات ، أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى أتابك قطب الدين مودود بن زنكي ، صاحب الموصل ، يطلبون منه إرسال الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه إليهم ، ليولوه السلطنة، فاستقرت القاعدة بينهم أن يكون سليمان شاه سلطاناً ، وقطب الدين أتابكه ، وجمال الدين ، وزير قطب الدين ، وزيراً لسليمان شاه ، وتحالفوا على هذا ، وجهز سليمان شاه بالأموال الكثيرة والبرك والدواب والآلات وغير ذلك ،مما يصلح للسلاطين ، وسار، ومعه زين الدين علي وعسكر الموصل إلى همذان ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت العساكر إليهم أرسالاً، كل يوم يلقاه طائفة وأمير، فاجتمع مع سليمان شاه عسكر، فخافهم زين الدين على نفسه ، لأنه رأى من تسلطهم على السلطان ، واطِّراحهم للأدب معه ، ما أوجب الخوف معه ، فعاد إلى الموصل ، فحين عاد عنه لم ينتظم أمره ، ولم يتم له ما أراده ، وقبض العسكر عليه بباب همذان ، في شوال ، سنة ست وخمسين ، وخطبوا لأرسلان شاه ابن الملك طغرل ، وهو الذي زوج أيلدكز بأمه ، وسيذكر مشروحاً إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين

في هذه السنة توفي الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن اسماعيل الظافر، صاحب مصر، وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين ، وكان له لما ولي خمس سنين كما ذكرناه .

ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر، واستدعى خادماً كبيراً، وقال له : من ههنا يصلح للخلافة؟ فقال : ههنا جماعة، وذكر أسماءهم ، وذكر له منهم إنساناً كير السن ، فأمر بإحضاره ، فقال له : بعض أصحابه سرأ، لا يكون عباس أحزم منك ! حيث اختار الصغير، وترك الكبار، واستبد بالأمر، فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه ، وأمر، حينئذ، بإحضار العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان العاضد، ذلك الوقت ، مراهقاً قارب البلوغ ، فبايع له بالخلافة، وزوجه الصالح ابنته ، ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله ، وعاشت بعد موت العاضد وخروج الأمر من العلويين إلى الأتراك ، وتزوجت.

ذكر وفاة الخليفة المقتفي لأمر اللّه وشيء من سيرته

وفي هذه السنة ، ثاني ربيع الأول ، توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبو عبد

الله محمد بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله رضي الله عنه ، بعلة التراقي ، وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر، سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد تدعى ياعي ، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً ، ووافق أباه المستظهر بالله في علة التراقي ، وماتا جميعاً في ربيع الأول ، وكان حليماً ، كريماً، عادلاً ، حسنَ السيرة ، من الرجال ذوي الرأي والعقل الكثير، وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن ، وأول خليفة لمكن من الخلافة، وحكم على عسكره وأصحابه ، من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن ، إلا أن يكون المعتضد وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه ، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار، في جميع البلاد، حتى كان لا يفوته منها شيء .

ذكر خلافة المستنجد بالله

وفي هذه السنة، بويع المستنجد بالله أمير المؤمنين ، واسمه يوسف ، وأمه أم ولد تدعى طاوس بعد موت والده ، وكان للمقتفي

حظية ، وهي أم ولده أبي علي ، فلما اشتد مرض المقتفي ، وأيست منه ، أرسلت إلى جماعة من الأمراء ، وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة، والأموال الجزيلة ، ليساعدوها على أن يكون ولدها الأمير أبو علي خليفة، فقالوا : كيف الحيلة مع ولي العهد، فقالت : إذا دخل على والده ، قبضت عليه ، وكان

يدخل إلى أبيه كل يوم ، فقالوا: لا بد لنا من أحد من أرباب الدولة ، فوقع اختيارهم على أبي المعالي ابن الكيا الهراسي ، فدعوه إلى ذلك ، فأجابهم على أن يكون وزيراً ، فبذلوا له ما طلب ، فلما استقرت القاعدة بينهم ، وعلمت أم أبي علي ، أحضرت عدة من الجواري وأعطتهن السكاكين ، وأمرتهن بقتل ولي العهد، المستنجد بالله ، وكان له خصي صغير، يرسله كل وقت يتعرف أخبار والده ، فرأى الجواري بأيديهن السكاكين ، ورأى بيد أبي علي وأمه سيفين ، فعاد إلى المستنجد وأخبره ، وأرسلته هي إلى المستنجد تقول له : إنّ والده قد حضره الموت ، ليحضر ويشاهده ، فاستدعى أستاذ دار عضد الدولة وأخذه معه وجماعة من الفراشين ، ودخل الدار، وقد لبس الدرع ، وأخذ بيده السيف ، فلما دخل ثار به الجواري ، فضرب واحدة منهن فجرحها ، وكذلك أخرى، وصاح ، ودخل أستاذ الدار ومعه الفراشون ، فهرب الجواري ، وأخذ أخاه أبا علي وأمه فسجنهما ، وأخذ الجواري فقتل منهن ، وغرق منهن ، ودفع الله عنه ، فلما توفي المقتفي لأمر الله جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه ، وأولهم عمه أبو طالب ، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفي ، وكان أكبر من المستنجد، ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء، وخطب له يوم الجمعة ، ونثرت الدنانير والدراهم . حكى عنه الوزير عون الدين بن هبيرة أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في المنام منذ خمس عشرة سنة، وقال لي : يبقى أبوك في الخلافة خمس عشرة سنة، فكان كما قال صلى الله عليه وسلم ، قال ثم رأيته قبل موت أبي المقتفي بأربعة أشهر، فدخل بي في باب كبير، ثم ارتقى إلى رأس جبل ، وصلى بي ركعتين ، ثم ألبسني قميصاً، ثم قال ليً : قل : اللهم اهدني فيمن هديت وذكر دعاء القنوت ، ولما وُلي الخلافة ، أقر ابن هبيرة على وزارته ، وأصحاب الولايات على ولاياتهم ، وأزال المكوس والضرائب ، وقبض على القاضي ابن المرخم ، وكان بئس الحاكم ، وأخذ منه مالاً كثيراً، وأُخذت كتبه ، فأحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة، فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب إخوان

الصفا، وما يشاكلهما . وقدم عضد الدين ابن رئيس الرؤساء ، وكان استاذ الدار، ومكنه ، وتقدم إلى الوزير أن يقوم له ، وعزل قاضي القضاة أبا الحسن علي بن أحمد الدامغاني ، ورتب مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي ، وخلع عليه .

ذكر الحرب بين عسكر خوارزمشاه والأتراك البرزية

في هذه السنة ، في ربيع الأول ، ثار طائفة من عسكر خوارزمشاه إلى أجنة ، وهجموا على يَغمُرخان بن أودك ومن معه من الأتراك البرزية، فأوقعوا بهم ، وأكثروا القتل ، فانهزم يغمرخان ، وقصد السلطان محمود بن محمد الخان ، والأتراك الغزية الذين معه ، وتوسل إليهم بالقرابة ، وظن يغمرخان أن اختيار الدين إيثاق ، هو الذي هيج الخوارزمية عليه ، فطلب من الغز إنجاده .

ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة

قد ذكرنا سنة ثلاث وخمسين عود المؤيد أي أبه إلى نيسابور، وتمكنه منها، وأن ذلك كان سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، ورأى المؤيد تحكمه في نيسابور، وتمكنه في دولته ، وكثرة جنده وعسكره . احسن السيرة في الرعية، لا سيما أهل نيسابور، فإنه جبرهم ، وبالغ في الِإحسان إليهم ، وشرع في إصلاح أعمالها وإصلاح ولاياتها ، فسير طائفة من عسكره إلى ناحية اسقيل ، وكان بها جمع قد تمردوا ، وأكثروا العيث والفساد في البلاد، وطال تماديهم في طغيانهم ، فأرسل إليهم المؤيد، يدعوهم إلى ترك الشر والفساد، ومعاودة الطاعة والصلاح ، فلم يقبلوا ، ولم يرجعوا عما هم عليه ، فسير إليهم سرية كثيرة ، فقاتلوهم ، وأذاقوهم عاقبة ما صنعوا ، فأكثروا القتل فيهم ، وخربوا حصنهم ، وسار المؤيد من نيسابور إلى بيهق ، فوصلها رابع عشر ربيع الأخر من السنة، وقصد منها حصن خسروجرد، وهو حصن منيع بناه كيخسرو الملك قبل فراغه من قتل أفراسياب ، وفيه رجال شجعان ، فامتنعوا على المؤيد، فحصرهم ونصب عليهم ، المجانيق وجدّ في القتال، فصبر أهل الحصن ، حتى نفد صبرهم ، ثم ملك المؤيد القلعة، وأخرج كل من فيها، ورتب فيها من يحفظها، وعاد منها إلى نيسابور في الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، من السنة.

ثم سار إلى هراة فلم يبلغ منها غرضاً ، فعاد إلى نيسابور، وقصد مدينة كندر– وهي من أعمال طربثيث ، وقد تغلب عليها رجل اسمه أحمد، كان خربنده ، واجتمعٍ معه جماعة من الزنود وقطاع الطريق

والمفسدين ، فخربوا كثيرا من البلاد، وقتلوا كثيرا من الخلق ، وغنموا من الأموال ما لا يحصى، وعظُمت المصيبة بهم على خراسان ، وزاد البلاد، فقصدهم المؤيد، فتحصنوا بالحصن الذي لهم ، فقوتلوا أشد قتالٍ ، ونصب

عليهم العرادات والمنجنيقات ، فأذعن هذا الخربنده أحمد إلى طاعة المؤيد، والانخراط في سلك أصحابه ، وأشياعه ، فقبله أحسن قبول ، وأحسن إليه ، وأنعم عليه ، ثم إِنه عصي على المؤيد، وتحصن بحصنه ، فأخذه المؤيد منه قهراً وعنوة ، وقيده واحتاط عليه ، ثم قتله وأراح المسلمين منه ومن شره وفساده .

وقصد المؤيد، في شهر رمضان ، ناحية بيهق ، عازفاً على قتالهم لخروجهم عن طاعته ، فلما قاربها ، أتاه زاهد من أهلها ، ودعاه إلى العفو عنهم ، والحلم عن ذنوبهم ، ووعظه ، وذكره ، فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم ، فأرسل السلطان محمود بن محمد الخان ، وهو مع الغزالي ، المؤيد بتقرير نيسابور وطوس وأعمالها عليه ، ورد الحكم فيها إليه ، فعاد إلى نيسابور رابع ذي القعدة من السنة، ففرح الناس بما تقرر بينه ، وبين الملك محمود، وبين الغز من إبقاء نيسابور عليه ، ليزول الخلف والفتن عن الناس .

ذكر الحرب بين شاه مازندران ويغمرخان

لما قصد يغمرخان الغز، وتوسل اليهم لينصروه على إيثاق ، لظنه أنه هو الذي حسن للخوارزمية قصده ، فأجابوه إلى ذلك ، وساروا معه على طريق نسا وأبيورد، ووصلوا إلى الأمير إيثاق ، فلم يجد لنفسه بهم قوّة ، فاستنجد شاه مازندران ، فجاءه ومعه الأكراد ، والديلم والأتراك ، والتركمان الذين يسكنون نواحي أيسكون ، جمعٌ كثير، فاقتتلوا ، ودامت الحرب بينهم ، وانهزم الأتراك الغزية والبرزية من شاه مازندران خمس مرات ، ويعودون ، وكان على ميمنة شاه مازندران الأمير إيثاق ، فحملت الأتراك الغزية عليه ، لما أيسوا من الظفر بقلب شاه مازندران ، فانهزم إيثاق وتبعه باقي العسكر، ووصل شاه مازندران إلى سارية ، وقُتِل من عسكره أكثرهم وحكي أن بعض التجار كفن ، ودَفَن من هؤلاء القتلى، سبعة آلاف رجل ، وأما إيثاق ، فإنه قصد في هربه خوارزم ، وأقام بها، وسار الغز من المعركة إلى دهستان ، وكان الحرب قريباً منها، فنقبوا سورها، وأوقعوا بأهلها، ونهبوهم أوائل سنة ست وخمسين وخمسمائة ، بعد أن خربوا جرجان ، وفرقوا أهلها في البلاد ، وعادوا إلى خراسان .

ذكر وفاة خسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده

في هذه السنة، في رجب ، توفي السلطان خسروشاه بن بهرام شاه بن مسعود بن

إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين ، صاحب غزنة ، وكان عادلًا حسن السيرة في رعيته ، محباً للخير وأهله مقرباً للعلماء، محسناً إليهم ، راجعاً إلى قولهم ، وكان ملكة تسع سنين ، وملك بعده ابنه ملك شاه ، فلما ملك ، نزل علاء الدين الحسين ملك الغور إلى غزنة، فحصرها، وكان الشتاء شديداً، والثلج كثيراً ، فلم يمكنه المقام عليها، فعاد إلى بلاده في صفر، سنة ست وخمسين .

ذكر الحرب بين إيثاق وبغراتكين

في هذه السنة ، منتصف شعبان ، كان بين الأمير إيثاق ، والأمير بغراتكين برغش الجَركاني حرب ، وكان إيثاق قد سار إلى بغراتكين في آخر أعمال جُوين ، فنهب ، وأخذ أمواله وكل ماله ، وكان ذا نعمة عظيمة ، وأموال جسيمة ، فانهزم بغراتكين عنها ، وخلاها فافتتحها إيثاق واستغنى بها، وقويت نفسه بسببها ، وكثُرت جموعه ، وقصده الناس . وأما بغراتكين ، فانه أرسل إلى المؤيد صاحب نيسابور، وسار في جملته ومعدوداً من أصحابه ، فتلقاه المؤيد بالقبول .

ذكر وفاة ملكشاه بن محمود

في هذه السنة، توفي ملكشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، بأصفهان مسموماً ، وكان سبب ذلك ، أنّه لما كثر جمعه بأصفهان ، أرسل إلى بغداد، وطلب أن يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ، ويعيدوا القواعد بالعراق إِلى ما كانت أولاً، وإلا قصدهم ، فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصياً ، كان خصيصاً به ، يقال له أغلبك الكوهرايينى ، فمضى إلى بلاد العجم ، واشترى جارية من قاضي همذان بألف دينار، وباعها من ملكشاه ، وكان قد وضعها على سمه ، ووعدها أموراً عظيمة على ذلك ، وسمته في لحم مشوي ، فأصبح ميتاً، وجاء الطبيب إِلى دكلا وشملة، فعرفهما أنه مسموم ، فعرفوا أن ذلك من فعل الجارية، فأُخذت ، وضُرِبت ، وأقرت ، وهرب أغلبك ، ووصل إلى بغداد، ووفي له الوزير بجميع ما استقر الحال عليه ، ولما مات ، أخرج أهل اصفهان أصحابه من عندهم ، وخطبوا لسليمان شاه ، واستقر ملكه

بتلك البلاد وعاد شملة إلى خوزستان ، فأخذ ما كان ملكشاه تغلب عليه منها.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، حج أسد الدين شيركوه بن شاذي ، مقدم جيوش نور الدين محمود

ابن زنكي ،م صاحب الشام ، وشيركوه هذا ، هو الذي ملك الديار المصرية ، وسيرد ذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها ، أرسل زين الدين علي – نائب قطب الدين ، صاحب الموصل – رسولاً إلى المستنجد ،يعتذر مما جناه من مساعدة محمد شاه في حصار بغداد، ويطلب أن يؤذن له في الحج ، فأرسل إليه يوسف الدمشقي ، مدرس النظامية، وسليمان بن قتلش ، يطيبان قلبه عن الخليفة، ويعرفانه الإذن في الحج ، فحج ودخل إلى الخليفة، فأكرمه وخلع عليه .

وفيها ، توفي قايماز الأرجواني ، أمير الحاج ، سقط عن الفرس وهو يلعب بالأكرة ، فسال مخه من مناخيره وأذنيه فمات .

وفيها، في ربيع الأخر، توفي محمد بن يحص بن علي بن مسلم أبو عبد الله الزبيدي ، من أهل زبيد، مدينة باليمن مشهورة، وقدم بغداد سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وكان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر، وكان نحوياً واعظا، وصحبه الوزير بن هبيرة مرة، وكان موته ببغداد.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

ذكر الفتنة ببغداد

في هذه السنة، في ربيع الأول ، خرج الوزير ابن هبيرة من داره الى الديوان ، والغلمان يطرقون له ، وأرادوا يردون باب المدرسة الكمالية بدار الخليفة ، فمنعهم الفقهاء ، وضربوهم بالأجر، فشهر أصحاب الوزير السيوف ، وأرادوا ضربهم ، فمنعهم الوزير، ومض إلى الديوان ، فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير، فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ، ونفيهم من الدار، فمضى أستاذ الدار، وعاقبهم هناك ، واختفى مدرسهم ، الشيخ أبو طالب ، ثم إن الوزير أعطى كل فقير ديناراً، واستحل منهم ، وأعادهم إلى المدينة ، وظهر مدرسهم .

ذكر قتل ترشك

في هذه الأيام ، قصد جمع من التركمان إلى البندنيجين ، فأمر الخليفة بتجهيز عسكر إليهم ، وأنْ يكون مقدّمهم ترشك ، وكان في أقطاعه بلد اللحف ، فأرسل إليه الخليفة يستدعيه ، فامتنع من المجيء إلى بغداد، وقال : يحضر العسكر، فأنا أقاتل بهم ، وكان عازماً على الغدر، فجُهِّزَ العسكر، وساروا إليه وفيهم جماعة من الأمراء، فلما اجتمعوا بترشك ، قتلوه ، وأرسلوا رأسه إلى بغداد، وكان قَتل مملوكاً للخليفة، فدعا أولياء المقتول ، وقيل لهمْ إنْ أمير المؤمنين قد اقتص لأبيكم ممن قتله .

ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان

في هذه السنة، في ربيع الأخر، قُتِلَ السلطان سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه ،وسبب ذلك ، أنه كان فيه تهور وخرق ، وبلغ به شرب الخمر حتى أنه شربها في رمضان نهاراً ، وكان يجمع المساخر، ولا يلتفت إلى الأمراء ، فأهمل العسكر أمره ،

وصاروا لا يحضرون بابه ، وكان قد رز جميعَ الأمور إلى شرف الدين كردباز، والخادم ، وهو من مشايخ الخدم السلجوقية، يرجع إلى دين وعقل وحسن تدبير، فكان الأمراء يشكون إليه ، وهو يسكنهم ، فاتفق أنه شرب يوماً بظاهر همذان في الكشك ، فحضر عنده كردبازو، فلامه على فعله قامر سليمان شاه من عنده من المساخرة، فعبثوا بكردبازو، حتى أن بعضهم كشف له سوأته ، فخرج مغضباً ، فلما صحا سليمان ، أرسل إليه يعتذر، فقبل عذره ، إلا أنه تجنب الحضور عنده ، فكتب سليمان إلى إينانج ، صاحب الري ، يطلب منه أن ينجده على كردبازو، فوصل الرسول واينانج مريض ، فأعاد الجواب يقول : إذا أفقت من مرضي ، حضرت إليك بعسكري ، فبلغ الخبر كردبازو،فازداد استيحاشاً، فأرسل إليه سليمان يوماً يطلبه ، فقال : إذا جاء إينانج ، حضرت ، وأحضر الأمراء واستحلفهم على طاعته ، وكانوا كارهين لسليمان فحلفوا له ، فأول ما عمل أن قتل المساخرة الذين لسليمان ، وقال إنما أفعل ذلك لملكك ، ثم اصطلحا.
وعمل كردبازو دعوة عظيمة ، حضرها السلطان والأمراء ، فلما صار السلطان سليمان شاه في داره ، قبض عليه كردبازو، وعلى وزيره ابن القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدي ، وعلى أصحابه ، في شوال ، سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، فقتل وزيره وخواصه ، وحبس سليمان شاه في قلعة، ثم أرسل إليه من خنقه وقيل : بل حبسه في دار مجد الدين العلوي رئيس همذان ، وفيها قُتِلَ ، وقيلْ بل سُقي سماً، فمات والله أعلم . وأرسل إلى ايلدكز، صاحب أرم نية وأكثر بلاد أذربيجان ، يستدعيه إليه ليخطب للملك أرسلان شاه الذي معه ، وبلغ الخبر إلى اينانج ، صاحب الري ، فسار ينهب البلاد، إلى أن وصل إلى همذان فتحصن كردبازو ، فطلب منه إينانج أن يعطيه مصافاً ، فقال : أنا لا أحاربك حتى يصل الأتابك الأعظم ايلدكز. وسار ايلدكز في عساكره جميعها، يزيد على عشرين ألف فارس ، ومعه أرسلان شاه بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه ، فوصل إلى همذان ، فلقيهم كردبازو، وأنزله دار المملكة ، وخطب لأرسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد ، وكان أيلدكز أتابكه ، والبهلوان حاجبه ، وهو أخوه لأمه وكان أيلدكز، هذا ، هو أحد مماليك السلطان مسعود

وأمرائه في أول أمره ، فلما ملك أقطعه ، أران وبعض أذربيجان ، واتفق الحروب والاختلاف ، فلم يحضر عند أحد من السلاطين السلجوقية، وعظُم شأنه ، وقوي أمره ، وتزوج بأم الملك أرسلان شاه ، فولدت له أولاداً ، منهم البهلوان محمد ، وقزل أرسلان عثمان ، وقد ذكرنا سبب انتقال أرسلان شاه

إليه ، وبقي عنده إلى الآن ،فلما خطب له بهمذان ، أرسل ايلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه أيضاً، وأن تعاد القواعد الى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود، فأهين رسوله ، وأعيد إليه على أقبح حالة، وأما اينانج صاحب الري ، فإن ايلدكز راسله ، ولاطفه ، فاصطلحا، وتحالفا على الاتفاق ، وتزوج البهلوان بن ايلدكز بابنة اينانج ،ونقلت إليه بهمذان .

ذكر الحرب بين بن آقسنقر وعسكر ايلدكز

لما استقر الصلح بين ايلدكز واينانج ، أرسل إلى ابن آقسنقر الأحمد يلي صاحب مراغة ، يدعوه إلى الحضور في خدمة السلطان أرسلان شاه ، فامتنع من ذلك ، وقال : إن كففتم عني ، وإلا فعندي سلطان ، وكان عنده ولد محمد شاه بن محمود – كما ذكرناه – وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه ، يطمعه في الخطبة لولد محمود شاه ، فجهز ايلدكز عسكراً مع ولده البهلوان ، فبلغ الخبر إلى ابن آقسنقر، فأرسل إلى شاه أرمن ، صاحب خلاط ، وحالفه ، وصارا يداً واحدة ، فسير إليه أرمن عسكراً كثيراً . واعتذر عن تأخر بنفسه لأنه في ثغر لا يمكنه مفارقته ، فقوي بهم ابن آقسنقر، وكثُر جمعه ، وسار نحو البهلوان ، فالتقيا على نهر أسبيرود، فاشتد القتال بينهم ، فانهزم البهلوان أقبح هزيمة، ووصل هو وعسكره الى همذان غلى أقبح صورة! واستأمن أكثر أصحابه إِلى ابن آقسنقر، وعاد إلى بلده منصوراً .

ذكر الحرب بين أيلدكز واينانج

لما مات ملكشاه ابن السلطان محمود – كما ذكرناه – أخذ طائفة من اصحابه ابنه محموداً، وانصرفوا به نحو بلاد فارس ، فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا السلغري ، فأخذه منهم ، وتركه ، في قلعة اصْطَخْر، فلمّا ملك ايلدكز، والسلطان أرسلان شاه الذي معه ، البلاد، وأرسل ايلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة للسلطان – كما ذكرناه – شرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحمى بن هبيرة ، وزير الخليفة ، في إثارة اصحاب الأطراف عليه ، وراسل الأحمديلي وكان – كما ذكرناه – وكاتب زنكي بن دكلا، صاحب بلاد فارس ، يبذل له أنْ يخطب للملك الذي عنده ، وهو ابن ملكشاه ، وعلق الخطبة له بظفره بايلدكز، فخطب ابن دكلا

للملك الذي عنده ، وأنزله من القلعة، وضرب الطبل على بابه خمس نوب ، وجمع عساكره ، وكاتب اينانج صاحب الري يطلب

منه الموافقة ، وسمع ايلدكز الخبر، فحشد وجمع ، وكثر عسكره وجموعه ، فكانت أربعين ألفاً، وسار إلى أصفهان يريد بلاد فارس ، وأرسل إلى زنكي ابن دكلا يطلب منه الموافقة، وانْ يعود يخطب لأرسلان شاه ، فلم يفعلِ وقال : إنَ الخليفة قد أقطعني بلاده ، وأنا سائر إليه : فرحل ايلدكز، وبلغه أن جشيراً لأرسلان بوقا ، وهو أمير من أمراء زنكي ، وفي إقطاعه ، أرجان بالقرب منه ، فانفذ سرية للغارة عليه ، فاتفق أن أرسلان بوقا عزم على تغيير الخيل التي معه ، فأضعفها، وأخذ عوضها من ذلك الجشير، فسار في عسكره إلى الجشير، فصادف العسكر الذي سيره أيلدكز لأخذ دوابه ، فقاتلهم وأخذهم ، وقتلهم ، وأرسل الرؤوس إلى صاحبه ، فكتب بذلك إلى بغداد، وطلب المدد، فوُعِد بذلك ، وكان الوزير عون الدين بن هبيرة، أيضاً، قد كاتب الأمراء الذين مع ايلدكز يوبخهم على طاعته ، ويضعف رأيهم ، ويحرضهم على مساعدة زنكي بن دكلا واينانج . وكانِ اينانج قد برز زمن الري ، في عشرة آلاف فارس ، فأرسل إلي ابن آقسنقر الأحمديلي خمسة آلاف فارس ، وهرب ابن البازدار، صاحب قزوين ، وابن طغيرك ، وغيرهما، فلحقوا باينانج ، وهو في صحراء ساوة، وأما ايلدكز، فإنه استشار نصحاءه ، فأشاروا بقصد اينانج ، لأنه أهم ، فرحل إليه ونهب زنكي سهيرم ، وغيرها ، فرد ايلدكز اليه أميراً في عشرة آلاف فارس لحفظ البلاد، فسار زنكي إليهم ، فلقيهم ، وقاتلهم فانهزم عسكر ايلدكز إليه ، فتجلد ايلدكز، وأرسل يطلب عساكر أذربيجان ، فجاءته مع ولده قزل أرسلان ، وسير زنكي بن دكلا عسكراً كثيراً إلى إينانج ، واعتذر عن الحضور بنفسه عنده لخوفه على بلاده مِنْ شملة ، صاحب خوزستان ، فسار ايلدكز إلى اينانج ، وتدانى العسكران ، فالتقوْا تاسع شعبان ، وجرى بينهم حرب عظيمة ، أجْلت عن هزيمة اينانج ، فانهزم أقبح هزيمة ، وقُتِلت رجاله ، ونهبت أمواله ، ودخل الري ، وتحصن في قلعة طبرك ، وحصر ايلدكز الري ، تم الصلح ، واقترح اينانج اقتراحات ، فأجابه ايلدكز إليها ، وأعطاه جرماذقان ، وغيرها ، .وعاد ايلدكز إلى همذان ، وكان ينبغي أنْ تتأخر هذه الحادثة ، والتي قبلها ، وإنما قدِّمت لتتبع أخواتها .

ذكر وفاة ملك النور وملك ابنه محمد

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفي الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغوري ،.ملك الغور، بعد انصرافه عن غزنة ، وكان عادلًا ، مِنْ احسن الملوك سيرة في

رعيته . ولمّا مات ملك بعده ابنه سيف الدين محمد، وأطاعه الناس ، وأحبوه ، وكان قد صار في بلادهم جماعة من دعاة الإسماعيلية ، وكثُر أتباعهم ، فأخرجهم من تلك الديار جميعها . ولم يَبق فيها منهم أحدٌ ، وراسل الملوك ، وهاداهم ، واستمال المؤيد أي أبه ، صاحب نيسابور، وطلب موافقته .

ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها

كان أهل العبث والفساد بنيسابور قد طمعوا في نهب الأموال ، وتخريب البيوت ، وفعل ما أرادوا، فإذا نهبوا لم ينتهوا، فلما كان الآن تقدم المؤيد أي أبه بقبض أعيان نيسابور، منهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني وغيره ، وحبسهم في ربيع الآخر، سنة ست وخمسين ، وقال : أنتم الذين أطمعتم الزنود والمفسدين ، حتى فعلوا هذه الفعال ، ولو أردتم منعهم لامتنعوا . وقتل من أهل الفساد جماعة، فخربت نيسابور، بالكلية، وبن جملة ما خرب مسجد عقيل ، وكان مجمعاً لأهل العلم ، وفيه خزائن الكتب الموقوفة، وكان من أعظم منافع نيسابور، وخُرب أيضاً من مدارس الحنفية ثمان مدارس ، ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة، وأحرِق خمس خزائن للكتب ، ونُهِب سبع خزائن كتب ، وبيعت بأبخس الأثمان ، هذا ما أمكن إحصاؤه سوى ما لم يذكر.

ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، قصد السلطان محمود بن محمد الخان ، وهو

ابن اخت السلطان سنجر- وقد ذكرنا أنه ملك خراسان بعده - ففي هذه السنة، حصر المؤيد صاحب نيسابور، بشاذياخ ، وكان الغز مع السلطان محمود، فدامت الحرب إلى آخر شعبان ، سنة ست وخمسين وخمسمائة، ثم إن محموداً أظهر أنه يريد دخول الحمام ، فدخل إلى شهرستان آخر شعبان كالهارب من الغز ، وأقاموا على نيسابور إلى آخر شوال ، ثم عادوا راجعين ، فعاثوا في القرى، ونهبوها ، ونهبوا طوس نهباً فاحشاً، وأحضروا المشهد الذي لعلي بن موسى، وقتلوا كثيراً ممن فيه ،

ونهبوهم ولم يعرضوا للقبة التي قيها القبر. فلما دخل السلطان محمود إلى نيسابور، أمهله المؤيد إلى أن دخل رمضان ، من سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وأخذه وكحله وأعماه وأخذ ما كان معه كل ت الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ، وكان يخفيها خوفاً عليها من الغز، لما كان

معهم ، وقطع المؤيد خطبته من نيسابور، وغيرها مما هو في تصرفه ، وخطب لنفسه بعد الخليفة المستنجد بالله ، وأخذ ابنه جلال الدين محمداً ، الذي كان قد ملكه الغز أمرهم قبل أبيه – وقد ذكرنا ذلك – وسمله أيضأ، وسجنهما، ومعهما جواريهما، وحشمهما، وبقيا فيها، فلم تطل أيامهما، ومات السلطان محي ؤ، ثم مات ابنه بعده من شدة وجده لموت أبيه ، والله أعلم .

ذكر عمارة شاذياخ نيسابور

كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين لما كان أميراً على خراسان للمأمون ،وسبب عمارتها أنه رأى امرأة جميلة تقود فرساً تريد سقيه ، فسألها عن زوجها ، فأخبرته به ، فأحضره ، وقال له : خدمة الخيل بالرجال أشبه ، فلم تقعد أنت في دارك وترسل امرأتك مع فرسك ؟ فبكى الرجل ، وقال له : ظلمك يحملنا على ذلك ، فقال وكيف ؟ قال : لأنك تنزل الجند معنا في دورنا، فإن خرجت أنا وزوجتي ، بقي البيت فارغاً فيأخذ الجندي ما لنا فيه ، وإن سقيت أنا الفرس فلا آمن على زوجتي من الجندي ، فرأيت أن أقيم في البيت وتخدم زوجتي الفرس . فعظم الأمر عليه ، وخرجٍ من البلد لوقته ، ونزل في الخيام ، وأمر الجند فخرجوا من دور الناس ، وبنى شاذياخ دارا له ولجنده ، وسكنها وهم معه . ثم إنها دثرت بعد ذلك ، فلما كان أيام السلطان ألب أرسلان ، ذُكِرَت له هذه القصة، فأمر بتجديدها،ثم إنها تشعثت بعد ذلك ، فلما كان الآن ، وخرجت نيسابور ولم يمكن حفظها، والغز تطرق البلاد وتنهبها ، أمر المؤيد حينئذ بعمل سورها، وسد ثلمه ، وسكناه ، ففًعِل ذلك ، وسكنها هو والناس معه ، وخربت حينئذ نيسابور كل خراب ، ولم يبق فيها اثنان .

ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك

في هذه السنة ، في شهر رمضان قُتِل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني ، وزير العاضد العلوي ، صاحب مصر، وكان سبب ، قتلة،، أنه تحكم في الدولة التحكم العظيم، واستبد بالأمر والنهي وجباية الأموال إليه ، لصغر العاضد، ولأنه هو الذي ولاه ، ووتر الناس ، فإنه أخرج

كثيراً من أيْمانهم ، وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ، ثم انه زوج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرم من القصر، فأرسلت عمة العاضد

الأموال إلى أمراء المصريين ، ودعتهم إلى قتله ، وكان أشدهم عليه في ذلك ، إنسان يقال له ابن الداعي ، فوقفوا له في دهليز القصر، فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش ، فجرحوه جراحات مهلكة ، إلا أنه حمل إلى داره وفيه حياة ، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله ، مع أثره في خلافته ، فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ، ولم يرض به فقال : إِن كنت بريئاً، فسلم عمتك إلي حتى انتقم منها، فأمر بأخذها، فأرسل إليها ، فأخذها قهراً وأحْضِرت عنده ، فقتلها ووصى بالوزارة لابنه رزيك ، ولقب العادل ، فانتقل الأمر إليه بعد وفاة أبيه ، وللصالح أشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير، فمنها في الافتخار:

أبى الله إلا أنْ يدومَ لنا الدهرُ ويخدمُنا في ملكنا العز والنصرُ

علّمَنا بأن المالَ تفنى ألوفُهُ ويبقى لنا مِنْ بعدِه الأجرُ والذكرُ

خلطْنا الندى بالبأسِ ، حتى كأنّنا سحابٌ لديه البرقُ والرعدُ والقطرُ

قرانا، إذا رحنا إلى الحربِ مرةً قرانا ومن أضيافنا الذئبُ والنسرُ

كما أننا في السلم نبذلُ جودَنا ويرتعُ في أنعامِنا العبدُ والحر

وكان الصالح كريماً، فيه أدب ، له شعر جيد، وكان لأهل العلم عنده إنفاق ، ويرسل إليهم العطاء الكثير، بلغه أن الشيخ أبا محمد بن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل ، قد شرح بيتاً من شعره ، وهو هذا:

تجنبَ سمعي ما يقولُ العواذلُ وأصبحَ لي شغلٌ مِنَ الغزوِ شاغلُ

فجهز إليه هدية سنية ليرسلها إليه ، فقُتل قبل إرسالها، وبلغه أيضاً أن إنساناً من أعيان الموصل ، قد أثنى عليه بمكة ، فأرسل إليه كتاباً يشكره ومعه هدية ، وكان الصالح إمامياً لم يكن على مذهب العلويين المصريين ، ولمّا ولي العاضد الخلافة، وركب سمع الصالح ضجة عظيمة، فقال : ما الخبر؟ فقيل : إنهم يفرحون بالخليفة، فقال : كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ، ما مات الأول حتى استخلف هذا، وما علموا أنني كنت من ساعة استعرضهمٍ استعراض الغنم ، قال عمارة : دخلت إلى صالح قبل قتله بثلاثة أيام ، فناولني قرطاسا فيه بيتان من شعره ، وهما :

نحنُ في غفلةٍ ونومٍ وللموتِ   عيونٌ يقظانةٌ لا تنامْ

قدْ رحلنا إلى الحمامِ سنيناً ليتَ شعري متى يكونُ الحمامْ

فكان آخر عهدي به . وقال عمارة أيضاً ومن عجيب الاتفاق ، أنني أنشدت ابنه قصيدة أقول فيها :

أبوكَ الذي لَسطو الليالي بحده وأنْتَ يمين إن سطَا وشمالُ

لرتبته العُظمى، وإنْ طال عمرُهُ إليْكَ مصيرُ واجبِ ومنالُ

تخالصَكَ اللّحظُ المصونُ ودونَها حجابُ شريفٍ لا انقضَا وحجالُ

فانتقل الأمر إليه بعد ثلاثة أيام .

ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد

في هذه السنة، في شهر رمضان ، اجتمعت خفاجة، إلى الحلة والكوفة وطالبوا برسومهم من الطعام ،والتمر وغير ذلك ، فمنعهم أمير الحاج أرغش ، وهو مقطع الكوفة ، ووافقه على منعه الأمير قيصر شحنة الحلة، وهما من مماليك الخليفة، فأفسدت خفاجة ، ونهبوا سواد الكوفة والحلة ، فأسرى إليهم الأمير قيصر شحنة الحلة ، في مائتين وخمسين فارساً، وخرج إليه أرغش في عسكر وسلاح ، فانتزحت خفاجة من بين أيديهم ، وتبعهم العسكر إلى رحبة الشام ، فأرسل خفاجة يعتذرون ، ويقولون : قد قنعنا بلبن الإِبل ، وخبز الشعير، وأنت تمنعونا رسومنا، وطلبوا الصلح ، فلم يجبهم أرغش وقيصر، وكان قد اجتمع مع خفاجة كثيرٌ من العرب ، فتصافوا ، واقتتلوا ، وأرسلت العرب طائفة إلى خيام العسكر ورحالهم ، فحالوا بينهم وبينها، وحمل العرب حملة منكرة ة فانهزم العسكر، وقُتِل كثيرٌ منهم ، وقُتِل الأمير قيصر، وأُسِرت جماعة أخرى، وجُرِح أمير الحاج جراحةً شديدةً، ودخل الرجبة، فحماه شحنتها ، وأخذ له الأمان ، وسيره الى بغداد، ومن نجا مات عطشاً في البرية، وكان إماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى، فإذا طلبه منهن أحد من العسكر أجهزن عليه ، وكثر النوح والبكاء ببغداد على القتلى، وتجهز

الوزير عون الدين بن هبيرة، والعساكر معه ، فخرج في طلب خفاجة، فدخلوا البرية، وخرجوا إلى البصرة، ولما دخلوا البر، عاد الوزير إلى بغداد ، وأرسل بنو خفاجة يعتذرون ، ويقولون : بُغي علينا ، وفارقنا البلاد ، فتبعونا ، واضطررنا إلى القتال ، وسألوا العفو عنهم ، فأُجيبوا إلى ذلك .

ذكر حصر المؤيد شارستان

في هذه السنة ، حصر المؤيد أفي أبه مدينة شارستان ، قريب نيسابور، وقاتله أهلها ، ونصب المجانيق ، والعرادات ، فصبر أهلها خوفاً على أنفسهم من المؤيد، وكان مع المؤيد جلال الدين الموفقي ، الفقيه الشافعي ، فبينما هو راكب ، إذ وصل إِليه حجر منجنيق ، فقتله ، خامس جمادى الآخرة من السنة، وتعدى الحجر منه إلى شيخٍ من شيوخ بيهق ، فقتله ، فعظُمت المصيبة بقتل جلال الدين على أهل العلم ، خصوصا أهل السنة والجماعة، وكان في عنفوان شبابه ، رحمه الله ، لما قُتِل ودام الحصار إلى شعبان ، سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنزل خواجكي صاحبها ، بعدما كثر القتل ، ودام الحصر، وكان لهذه القلعة ثلاثة رؤساء هم أرباب النهي والأمر، وهم الذين حفظوها، وقاتلوا عنها ، أحدهم خواجكي هذا ، والثاني داعي بن محمد ابن أخي حرب العلوي ، والثالث الحسين بن أبي طالب العلوي الفارسي – فنزلوا كلهم أيضاً ، إلى المؤيد أي أبه فيمن معهم من أشياعهم وأتباعهم ، فأما خواجكي فإنه أثبت عليه أنه قتل زوجته ظلماً وعدواناً، وأخذ مالها فقُتِل بها، وملك المؤيد شارستان ، وصفت له ، فنهبها عسكره ،إلا أنهم لم يقتلوا امرأة، ولا سبوها.

ذكر ملك الكرج مدينة آني

في هذه السنة ، في شعبان ، اجتمعت الكرج مع ملكهم ، وساروا إلى مدينة آني ،

من بلاد آران ، وملكوها، وقتلوا فيها خلقاً كثيراً، فانتدب لهم شاه أرمن بن ابراهيم بن سكمان ، صاحب خلاط ، وجمع العساكر، واجتمع معه من المتطوعة خلقٌ كثير،لا وسار إليهم ، فلقوه وقاتلوه ، فانهزم المسلمون ، وقُتِل أكثرهم ، وأسر كثير منهم ، وعاد شاه أرمن مهزوماً، ولم يرجع معه غير أربعمائة فارس من عسكره .

ذكر ولاية عيسى مكة ، حرسها الله تعالى

كان أمير مكة، هذه السنة قاسَم بن فليتة بن قاسم بن أبي هاشم ، العلوي الحسيني ، فلما سمع بقرب الحجاج من مكة، صادر المجاورين ،وأعيان أهل مكة، وأخذ كثيراً من أموالهم ،وهرب من مكة خوفاً من أمير

الحاج أرغش ، وكان قد حج هذه السنة زين الدين علي بن . بكتكين ، صاحب جيش الموصل ، ومعه طائفة صالحة من

العسكر، فلما وصل أمير الحاج إلى مكة، رتب مكان قاسم بن فليتة، عمه عيسى بن قاسم بن هاشم ، فبقي كذلك إلى شهر رمضان ،ثم إن قاسم بن فليتة جمع جمعاً كثيراً من العرب ، أطمعهم في مال له بمكة، فاتبعوه ، فسار بهم إليها، فلما سمع عمه عيسى فارقها ، ودخلها قاسم ، فأقام بها أميراً أياماً ، ولم يكن له مال يوصله إلى العرب ، ثم إنه قتل قائداً كان معه حسن السيرة ، فتغيرت نيات أصحابه عليه ، وكاتبوا عمه عيسى ، فقدم عليهم ، فهرب ، وصد جبل أبي قبيس ، فسقط عن فرسه ، فأخذه أصحاب عيسى، وقتلوه ، فعظم عليه قتله ، فأخذه وغسله ودفنه بالمعلى عند أبيه فليتة ، واستقر الأمر بعده لعيسى ، والله أعلم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سار عبد المؤمن بن علي إلى جبل طارق ،وهو على ساحل الخليج ،

بما يلي الأندلس ، فعبر المجاز إليه ، وبنى عليه مدينة حصينة، وأقام بها عليه عدة شهور، وعاد إلى مراكش .

وفيها في المحرم ، ورد نيسابور جمع كثير من تركمان ، بلاد فارس ، ومعهم أغنام كثيرة للتجارة، فباعوها وأخذوا الثمن ، ونزلوا على مرحلتين من طابس كنكلي ، وباتوا هناك ، فنزل اليهم الإسماعيلية، وكبسوهم ليلاً، ووضعوا السيف فيهم ، فقتلوا، وأكثروا، ولم ينج منهم إِلا الشريد، وغنم الإسماعيلية جميع ما معهم من مال ، وعروض ، وعادوا إلى قلاعهم .

وفيها كثرت الأمطار في أكثر البلاد، ولا سيما خراسان ، فإن الأمطار توالت فيها،

من العشرين من المحرم ، إلى منتصف صفر، لم تنقطع ، ولا رأى الناس فيها شمساً . وفيها كان بين الكرج وبين الملك صلتق بن علي ، صاحب أرزن الروم ، قتال وحرب ، انهزم فيه صلتق وعسكره ، وأُسِر هو، وكانت أخته شاه بانوار قد تزوجها شاه أرمن بن سكمان بن إبراهيم بن سكمان ، صاحب خلاط ، فأرسلت إلى ملك الكرج هدية جليلة المقدار، وطلبت منه أن يفاديها بأخيها، فأطلقه فعاد إلى ملكه .

وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج ، نور الدين محمود، صاحب الشام ، ملتجئاً إليه فأمنه ، وسير معه عسكراً يمنعه من الفرنج أيضاً، فظفر عليهم في الطريق

كمين للفرنج ، فقتلوا من المسلمين جماعة ، وانهزم الباقون .

وفيها ملك قرا أرسلان ، صاحب حصن كيفا، قلعة شاتان ، وكانت لطائفة من الأكراد يقال لهم الجونية ، فلفا ملكها ، خربها، وأضاف ولايتها إلى حصن طالب . وفيها توفي الكمال حمزة بن علي بن طلحة ، صاحب المخزن ، كان جليل

القدر أيام المسترشد بالله ، وولي المقتفى ، وبنى مدرسة لأصحاب الشافعي بالقرب من داره ، ثم حج ، وعاد وقد لبسر الفوط ، وزي الصوفية ، وترك الأعمال ، فقال بعض الشعراء فيه :

يا عضد الِإسلام يا مَنْ سمتْ ... إلى العلا همّتُهُ الفاخِرةْ

كانتْ لكَ الدّنيا فلم ترضَها ... ملكاً، فأخلدْتَ إلى الآخرةْ

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

ذكر فتح المؤيد طوس ، وغيرها

في هذه السنة، في السابع والعشرين من صفر، نازل المؤيد أي أبه أبا بكر جاندار بقلعة وسكرة خوي من طوس ، وكان قد تحصن بها، وهي حصينة منيعة، لا ترام ، فقاتله ، وأعانه أهل طوس على أبي بكر لسوء سيرته كانت فيهم ، وظلمه ، فلما رأى أبو بكر ملازمة المؤيد، ومواصلة القتال عليه ، خضع وذل ، ونزل من القلعة بالأمان ، في العشرين من ربيع الأول من السنة، فلما نزل منها، حبسه المؤيد، وأمر بتقييده ، ثم سار منها إلى كرستان ، وصاحبها أبو بكر فاخر، فنزل من قلعته ، وهي من أمنع الحصون ، على رأس جبل عال ، وصار في طاعة المؤيد ، ودان له ، ووافقه ، وسير جيشاً في جمادى الآخرة منها، إلى اسفراين ، فتحصن رئيسها، عبد الرحمن بن محمد ابن علي الحاج ، بالقلعة، وكان أبوه كريم خراسان على الإِطلاق ، ولكن كان عبد الرحمن ، هذا بئس الخلف ، فلما تحصن ، أحاط به العسكر المؤيدي ، واستنزلوه من الحصن ، وحملوه مقيداً إلى شاذياخ ، وحُبس بها، وقيل : في ربيع الآخر، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة .

وملك المؤيد أيضاً، قهندز نيسابور، واستدارت مملكة المؤيد حول نيسابور، وعادت إلى ما كان عليه قبل ، إلا أنّ أهلها انتقلوا إلى شاذياخ ، وخربت المدينة العتيقة ، وسير المؤيد جيشاً إلى خواف ، وبها عسكر مع بقض الأمراء، اسمه أرغش ، فكمن أرغش جمعاً في تلك المضايق والجبال ، وتقدم إلى عسكر المؤيد، فقاتلهم ، وطلع الكمين ، فانهزم عسكر المؤيد، وقُتِل منهم جمعٌ وعاد الباقون إلى المؤيد بنيسابور، وسير جيشاً إلى بوشنج هراة، وهي في طاعة الملك محمد بن الحسين الغوري ، فحصروها واشتد الحصار عليها، وقام القتال والزحف ، فسير الملك محمد الغوري

جيشاً إليها ليمنع عنها،فلما قاربوا هراة، فارقها العسكر الذي يحصرها وعادوا عنها ، وصفت تلك الولاية للغورية .

ذكر أخذ ابن مردنيش غرناطة من عبد المؤمن وعودها إليه

في هذه السنة أرسل أهل غرناطة من بلاد الأندلس –وهي لعبد المؤمن –إلى الأمير إبراهيم بن همشك ، صهر ابن مردنيش ، فاستدعوه إليهم ليسلموا إليه البلد، وكان قد وحد، وصار من أصحاب عبد المؤمن ، وفي طاعته ، وممن يحرضه على قصد ابن مردنيش فلما وصل إليه رسل أهل غرناطة، سار معهم إليها، فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن ، فامتنعوا بحصنها، فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة ، فجمع الجيش الذي كان عنده ، وترجه إلى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابهم ، فعلم بذلك إبراهيم بن همشك ، فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق الأندلس ، فأرسل إليه ألفي فارس من أنجاد أصحابه ، ومن الفرنج الذين جندهم معه ، فاجتمعوا بنواحي غرناطة، فالتقوْا هم رمن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن ، قبل وصول أبي سعيد إليهم ، فاشتد القتال بينهم ، فانهزم عسكر عبد المؤمن ، وقدم أبو سعيد ، واقتتلوا أيضا ، فانهزم كثير من أصحابه ، وثَبُت معه طائفة من الأعيان والفرسان المشهورين والرجالة والأجلاد ، حتى قتلوا عن آخرهم ، وانهزم حينئذ أبو سعيد ، ولحق بمالقة، وسمع عبد المؤمن الخبر، وكان قد سار إلى مدينة سلا فسير في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين ، فجلوا المسير، فبلغ ذلك ابن مردنيش ، فسار بنفسه وجيشه إلى غرناطة ليعين ابن همشك ، فاجتمع منهم بغرناطة، جمعٌ كثير، فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها ، ونزل العسكر الذي أمر به ابن همشك أولًا ، وهم ألفا فارس ، بظاهر القلعة الحمراء ، ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ، ووصل عسكر عبد المؤمن إلى جبل قريب من غرناطة ، فأقاموا في سفحه أياماً ، ثم سيروا سرية، أربعة آلاف فارس ، فبيتوا العسكر الذي بظاهر القلعة الحمراء، وقاتلوهم من جهاتهم ، فما لحقوا يركبون ، فقتلوهم عن آخرهم ، وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته ، فنزلوا بضواحي

غرناطة ، فعلم ابن مردنيش وابن همشك أنهم لا طاقة لفم بهم ، ففروا في الليلة الثانية، ولحقوا ببلادهم ، واستولى الموحدون على غرناطة في باقي السنة المذكورة، وعاد عبد المؤمن من مدينة سلا إلى مراكش .

ذكر حصر نور الدين حارم

في هذه السنة، جمع نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الشام ، العساكر بحلب ، وسار إلى قلعة حارم وهي للفرنج غري حلب ، فحصرها، وجد في قتالها فامتنعت عليه بحصانتها، وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم ، فلما علم الفرنج ذلك ، جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد، وحشدوا ، واستعدوا ، وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف ، فلم يجيبوه إِليه ، وراسلوه ، وتلطفوا الحال معه ، فلما رأى انه لا يمكنه أخذ الحصن ، ولا يجيبونه إلى المصاف ، عاد إلى بلاده . وممن كان معه في هذه الغزوة، مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ الكناني ، وكان من الشجاعة في الغاية، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيزر، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج، فلما دخله الآن كتب على حائطه :

لكَ الحمدُ يا مولاي ،كم لكَ مِنة علي،وفَضْل لا يحيطُ بهِ شكري

نَزلْتُ بهذا المسجدِ العامَ قافلاً من الغزو موفورَ النصيبِ مِنَ الأجرِ

ومنْهُ رحلتُ العيس في عامي الذي مضى نحو بيت الله والركنِ، والحجرِ،

فأديتُ مفروضي وأسقطتُ ثقل ما تحملْت مِنْ وزرِ الشبيبةِ عَنْ ظهري

ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكي

لي هذه السنة، في رجب ، ملك الخليفة المستنجد بالله قلعة الماهكي ، وسبب ذلك أن سنقر الهمذاني – صاحبها – سلمها إلى أحد مماليكه ، ومضى إلى همذان ، فضعف هذا المملوك عن مقاومة ما حولها من التركمان واسراد، فأثير عليه ببيعها من الخليفة، فراسل في ذلك ، فاستقرت على خمسة عشر ألف دينار وسلاح ،وغير ذلك من الأمتعة، وعدة من القرى، فسلمها، وتسلم ما استقر له وأقام ببغداد، وهذه القلعة لم تزل من أيام المقتدر بالله بأيدي التركمان والأكراد إلى الآن .

ذكر الحرب بين المسلمين والكرج

في هذه السنة، في شعبان ، اجتمعت الكرج في خلتي كنير، يبلغون ثلاثين ألف

مقاتل ، ودخلوا بلاد الإسلام ، وقصدوا مدينة دوين أذربيجان ، فملكوها ، ونهبوها ، وقتلوا من أهلها وسوادها نحو عشرة آلاف قتيل ، وأخذوا النساء سبايا ، وأسروا كثيراً وأعروا النساء ، وقادوهن حفاة عراة ، وأحرقوا الجامع والمساجد ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، أنكر نساء الكرج ما فعلوا بنساء المسلمين ، وقلن لهم : قد احوجتم المسلمين إلى أن يفعلوا بنا مثل ما فعلتم بنسائهم ، وكَسَوْنهن ، ولما بلغ الخبر إلى شمس الدين ايلدكز – صاحب أذربيجان ، والجبل ، وأصفهان – جمع عساكره ، وحشدها ، وانضاف إليه شاه أرمن بن سكمان القطبي – صاحب خلاط – وابن آقسنقر– صاحب مراغة وغيرها – فاجتمعوا في عسكر كثير، يزيدون على خمسين ألف مقاتل ، وساروا إلى بلاد الكرج ، في صفر، سنة ثمان وخمسين ، ونهبوها، وسبوا النساء والصبيان ، وأسروا الرجال ، ولقيهم الكرج ، واقتتلوا أشد قتال صبر فيه الفريقان ، ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر، وكان الظفر للمسلمين ، فانهزم الكرج ، وقُتِل منهم كثير، وأُسِر كذلك ،وكان سبب الهزيمة أن بعض الكرج حضر عند ايلدكز فأسلم على يديه ، وقال له : تعطيني عسكراً حتى أسير بهم في طريق أعرفها، وأجيء إلى الكرج من ورائهم وهم لا يشعرون ، فاستوثق منه ، وسيَّر معه عسكراً ، وواعده يوماً يصل فيه إلى الكرج ، فلتا كان ذلك اليوم ، قاتل المسلمون الكرج ، فبينما هم في القتال وصل ذلك الكرجي الذي أسلم ومعه العسكر، وكبروا وحملوا على الكرج من ورائهم ، فانهزموا، وكَثُر القتل فيهم والأسر، وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الإحصاء لكثرته ، فانهم كانوا متيقنين الظفر لكثرتهم ،فخيب الله ظنهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها ، وعاد المسلمون منصورين قاهرين .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، وصل الحجاج إلى منى ، ولم يتم الحج لأكثر الناس لصدهم عن دخول مكة ، والطواف ، والسعي ، فمن دخل يوم النحر مكة ، طاف ، وسعى ، وكمل ، ومن تأخر عن ذلك ، مُنع دخول مكة ، لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكة ،وكان سببها أن جماعة من عبيد مكة

أفسدوا في الحاج بمنى، فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج ، فقتلوا منهم جماعة، ورجع من سلم إلى مكة، وجمعوا جمعاً، وأغاروا على جِمال الحاج ، وأخذوا منها قريباً من ألف جمل ، فنادى أمير الحاج في جنده ، فركبوا

بسلاحهم ، ووقع القتال بينهم ، فقتل جماعة، ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة، فرجع أمير الحاج ، ولم يدخل مكة ، ولم يقم بالزاهر غير يوم واحد ، وعاد كثير من الناس رجالة لقتل الجمال ، ولقوْا شدة .

وممن حج هذه السنة ، جدتنا أم أبينا ، ففاتها الطواف والسعي ، فاستفتى لها الشيخ الإمام أبو القاسم بن البرزي ، فقال : تدوم على ما بقي عليها من إحرامها ، لان أحبت تفدي وتحل من إحرامها إلى قابل ، وتعود إلى مكة، وتطوف، وتسعى ، فتكمل الحجة الأولى ، ثم تحرم إحراماً ثانياً ، وتعود إلى عرفات ، فتقف ، وترمي الجمار، وتطوف ، وتسعى ، فتصير لها حجة ثانية، فبقيت على إحرامها إلى قابل ، وحجت ، وفعلت كما قال ، فتم حجها الأول والثاني .

وفيها نزل بخراسان برد كثير، عظيم المقدار، أواخر نيسان ، وكان أكثره بجوين ونيسابور وما والاهما، فأهلك الغلات ، ثم جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيام .

وفيها ، في جمادى الآخرة ، وقع الحريق ببغداد ، احترق سوق الطيوريين والدور

التي تليه مقابلة إِلى سوق الصفرة الجديد، والخان الذي في الرحبة، ودكاكين البزوريين ، وغيرها .

وفيها ، توفي الكيا الصباحي ، صاحب الموت ، مقدم الإسماعيلية ، وقام ابنه مقامه فأظهر التوبة، وأعاد هو ومن معه الصلوات وصيام شهر رمضان ، وأرسلوا إلى قزوين يطلبون من يصلي بهم ، ويعلمهم حدود الإسلام ، فأُرسلوا إليهم .

وفيها في رمضان ، درس شرف الدين يوسف الدمشقي في المدرسة النظامية ببغداد، وكان مدرساً بمدرسة أبي حنيفة ، وكان موته في ذي القعدة .

وفيها توفي صدقة ابن وزير الواعظ .

وفيها، في المحرم ، توفي الشيخ عدي بن مسافر، الزاهد، المقيم ببلد الهكارية

من أعمال الموصل ، وهو من الشام ، من بلد بعلبك –، فانتقل إلى الموصل ، وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحي ، وأطاعوه وحسنوا الظن فيه ، وهو مشهور جداً .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ، ثم وزارة الضرغام بعده

فى هذه السنة، في صفر، وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي صاحب مصر ، وكان ابتداء أمره ووزارته ، أنه كان يخدم الصالح بن رزيك ، ولزمه ، فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد، وهو أكبر الأعمال بعد الوزارةِ فلما وُلي الصعيد، ظهرت منه كفاية عظيمة ، وتقدم زائد ، واستمال الرعية ، والمقدمين من العرب ، وغيرهم ، فعسر أمره على الصالح ،ولم يمكنه عزله ، فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته ، فلما جرح الصالح ، كان من جملة وصيته لولده العادل أنّه لا يغير على شاور، فإنني أنا أقوى منك ، وقد ندمت على استعماله ، ولم يمكني عزله ، فلا تغيروا ما به ، فيكون لكم منه ما تكرهون ، فلما توفي الصالح من جراحته ووُلي ابنه العادل الوزارة ، حسن له أهله عزل شاور، واستعمل بعضهم مكانه ، وخوفوه منه ، إن أقره على عطه ، فأرسل إليه بالعزل ، فجمع جموعاً كثيرة، وسار إلى القاهرة، بهم ، فهرب منه العادل بن الصالح بن رزيك ، فأخِذ وقتل ، فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله ، اتسع سنين وشهراً وأياماً ، وصار شاور وزيراً ، وتلقب بأمير الجيوش ، وأخذ أموال بني رزيك ، وودائعهم وذخائرهم ، وأخذ منه أيضاً طي والكامل ، ابنا شاور، شيئاً كثيراً وتفرق كثيرٌ منها، وجحد، وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين إلى الأتراك ، ثم إن الضرغام جمع جموعاً كثيرة، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان ، وظهر أمره ، وانهزم شاور منه إلى الشام – على ما نذكره – سنة تسع وخمسين وخمسمائة – وصار ضرغام وزيراً . كان هذه السنة ثلاثة وزراء العادل بن رزيك ، وشاور، وضرغام ، فلما تمكن ضرغام من الوزارة ، قتل كثيراً مِن الأمراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع ، فضعفت الدولة بهذا السبب ، حتى خرجت البلاد عن أيديهم .

ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف

في هذه السنة، في العشرين من جمادى الآخرة، توفي عبد المؤمن بن علي ، صاحب بلاد المغرب وأفريقية والأندلس ، وكان قد سار من مراكش إلى سلا، فمرض بها، ومات ، ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين من أصحابه ، وقال لهم : قد جربت ابني محمداً ، فلم أره يصلح لهذا الأمر، وإنما يصلح له ابني يوسف ، وهو أولى بهاج فقدموه ، ووصاهم به وبايعوه ، ودعي بأمير المؤمنين ، وكتموا موت عبد المؤمن ، وحمل من سلا في محفة بصورة مريض إلى أن وصل إلى مراكش ، وكان ابنه أبو حفص ، في تلك المدة، حاجباً لأبيه ، فبقي مع أخيه على مثل حاله مع أبيه – يخرج فيقول للناس : أمير المؤمنين أمر بكذا ، ويوسف يقعد مقعد أبيه ، إلى أن كملت المبايعة له في جميع البلاد، واستقرت قواعد الأمور له ، ثم أظهر موت أبيه عبد المؤمن ، فكانت ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وشهوراً ، وكان عاقلاً، حازماً، سديد الرأي ، حسن السياسة للأمور، كثير البذل للأموال ، إلا أنه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير، وكان يعظم أمر الدين ، ويقويه ويلزم الناس ، في سائر بلاده بالصلاة ، ومن رآه وقت الصلاة غير مصل قُتل . وجمع الناس بالغرب على مذهب مالك في الفروع ، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول . وكان الغالب على مجلسه ، أهل العلم والدين ، المرجع إليهم والكلام معهم ولهم . .

ذكر ملك المؤيد أعمال قومس ، والخطبة للسلطان أرسلان بخراسان

في هذه السنة، سار المؤيد أي أبه ، صاحب نيسابور، إلى بلاد قومس ، فملك بسطام ودامغان ، واستناب بقومس مملوكه تنكز، فأقام ،تنكز بمدينة بسطام ، فجرى بين تنكز وبين شاه مازندران اختلافٌ أدى إلى الحرب ، فجمع كل منهما عسكره ، والتقوْا ، أوائل ذي الحجة في هذه السنة ، واقتتلوا ، فانهزم عسكر مازندران ، وأُخِذت أسلابهم ، وقتِل منهم طائفةٌ كبيرة ، ولما ملك المؤيد بلاد قومس ، أرسل إليه السلطان أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعاً نفيسة، وألوية معقودة، وهدية جليلة، وأمره أنْ يهتم بإشعاث بلاد خراسان ، ويتولى ذلك أجمع ، وأن

يخطبَ له ، فلبس المؤيد الخلع ، فخُطِب له في البلاد التي هي بيده ، وكان السبب في هذا أتابك شمس الدين أيلدكز، فإنّه كان هو الذي يحكم في مملكة أرسلان ، وليس لأرسلان غير الاسم ، وكان بين

أيلدكز وبين المؤيد مودة – ذكرناها عند قتل المؤيد – فلما أطاع المؤيد السلطان أرسلان ، خطب له ببلاد – وهي قومس ، ونيسابور، وطوس ، وأعمال نيسابور جميعها ومن نسا إلى طبس كنكلي – وكان يخطب لنفسه بعد أرسلان ، وكانت الخطبة في جرجان ودهستان لخوارزمشاه بن أرسلان بن أتسز، وبعده للأمير إيثاق ، وكانت الخطبة في مرْو وبلْخ وهراة وسرخس ، وهذه البلاد ، بيد الغز إلى هراة ، فإنّها بيد الأمير ايتكين ، وهو مسالم للغز، فكانوا يخطبون للسلطان سنجر، فيقولون ، اللهم اغفر للسلطان السعيد المبارك سنجر، وبعده للأمير الذي هو الحاكم في تلك البلاد .

ذكر قتل الغز ملك الغور

في هذه السنة في رجب ، قُتِلَ سيف الدين محمد بن الحسين الغوري ملك الغور،

قتله الغز، وسبب ذلك ، أنه جمع عساكره ،وحشد فأكثر، وسار من جبال الغور يريد الغز، وهو ببلْخ ، واجتمعوا ، وتقدموا اليه ، فاتفق أن ملك الغور خرج من معسكره في جماعة من خاصته جريدة، فسمع به أمراء الغز، فساروا يطلبونه مجدين ، قبل أن يعؤ إلى معسكره ، فأوقعوا به فقاتلهم أشدّ قتال رآه الناس فقُتِل ومعه نفرٌ ممن كان معه ، وأُسِر طائفة ، وهربت طائفة ، فلحقوا بمعسكرهم ، وعادوا إلى بلادهم منهزمين ، لا يقف الأب على أبيه ، ولا الأخ على أخيه ، وتركوا كل ما معهم بحاله ، ونجوا بنفوسهم ، فكان عُمْر ملك الغور، لما قتِل ، نحو عشرين سنة ، وكان عادلاً حسن السيرة، فمن عدله ، وخوفه عاقبة الظلم أنّه حاصر أهل هراة، فلما ملكها، أراد عسكره أن ينهبوها، فنزل على درب المدينة، وأحضر الأموال والثياب ، فأعطى جميع عسكره منها، وقال هذا خيرٌ من أنْ تنهبوا أموال المسلمين ، وتسخطوا الله تعالى ، فإن الملك يبقي على الكفر ولا يبقي على الظلم ، ولما قُتِل عاد الغز إلى بلْخ ومرْو، وقد غنموا شيئاً كثيراً من العسكر الغوري ، لأن أهله تركوه ونجوا .

ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج

في هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زنكي من الفرنجِ تحت حصن الأكراد،

وهي الوقعة المعروفة بالبقيعة، تحت حصن الأكراد، محاصراَ له ، وعازماً على قصد طرابلس ومحاصرتها، فبينما الناس يوما في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا طهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد، وذلك أنّ الفرنج اجتمعوا

واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهاراً ، فإنهم يكونون آمنين ، فركبوا من وقتهم ، ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم ، وساروا مجدين ، فلم يشعُر بذلك المسلمون إلا وقد قربوا منهم ، فأرادوا منعهم ، فلم يطيقوا ذلك ، فأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال ، فرهقهم الفرنج بالحملة، فلم يثبت المسلمون ، وعادوا يطلبون معسكر المسلمين ، والفرنج في ظهورهم ، فوصلوا معا الى العسكر النوري ، فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل ، وأخذ السلاح ، إلا وقد خالطوهم ، فأكثروا القَتْل والأسر ، وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومي ، فإنه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل في جمع كثير من الروم ، فقاتلوا محتسبين ،في زعمهم ، فلم يبقوا على أحد، وقصدوا خيمة نور الدين ،وقد ركب فيها فرسه ، ونجا بنفسه ، ولسرعته ، ركب الفرس والشبحة في رجله ، فنزل إنسان كردي قطعها ، فنجا نور الدين ، وقُتِل الكردي ، فأحسن نور الدين إلى مخلفيه ، ووقف عليهم الوقوف ، ونزل نور الدين على بحيرة قدس ، بالقرب من حمص ، وبينه وبين المعركة أربع فراسخ ، وتلاحق به من سلم من العسكر، وقال له بعضهم : ليس من الرأي أنْ تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ، فتؤخذ ونحن على هذا الحال ، فوبَخه ،واسكته ، وقال : إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ، ولا أبالي بهم ، ووالله لا أستظل بسقفٍ حتى آخذ بثأري ، وثأر الإِسلام ، ثم أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل ، فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه بقولهم ، فعاد العسكر كأنْ لم تصبه هزيمة، وكل من قُتِل أعطى أقطاعه لأولاده ، وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ، لأنها أقرب البلاد إليهم ، فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم ، قالوا : لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها، ولمّا رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه ، قال له بعضهم : إنّ لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت في هذا الوقت لكان أصلح ، فغضب من ذلك ، وقال : والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي

بسهام لا تخطي ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني ، بسهام قد تصيب ، وقد تخطي ؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت الفال ، كيف يحل لي أن اعطيه غيرهم ؟ ثم إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح ، فلم يجبهم ، وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه ، وعادوا الى بلادهم .

ذكر إجلاء بني أسد من العراق

في هذه السنة، أمر الخليفة المستنجد بالله بإهلاك بني أسد ، أهل الحلة المزيدية ،

لما ظهر بن فسادهم ، ولما كان فيِ نفس الخليفة منهم ، من مساعدتهم السلطان محمداُ لما حصر بغداد، فأمر يزدن بن قماج بقتالهم ، وإجلائهم من البلاد ، وكانوا منبسطين في البطائح واللوير، فلا يقدر عليهم ، فتوجه يزدن إليهم ، وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجلٍ ، وأرسل إلى ابن معروف ، مقدم المتفق ، وهو بأرض البصرة ، فجاء في خلق كثير، وحصرهم ، وسكر عنهم الماء وصابرهم مدة فأرسل الحليفة يعتب على يزدن ، وجزه ، وبنسبه إلى موافقته في التشيع ، وكان يزدن يتشيع ، فجد هو وابن معروف في قتالهم ، والتضييق عليهم ، وسد مسالكهم ني الماء، فاستسلموا حينئذ فَقُتِل منهم أربعة آلاف قتيل ، ونودي فيمن بقي : من وُجِد بعد هذا في الحلة المزيدية، فقد حل دمه ، فتفرقوا في البلاد، ولم يبق منهم بالعراق من يُعرف ، وسلمت بطائحهم إلى ابن معروف وبلادهم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة" وقع في بغداد حريقٌ في باب لرب فراشا إلى مشرعه الصباغين من الجانبين .

وفيها في رجب ، توفي سديد الدولة أبو عبد الله بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم ، المعروف بابن الأنباري ، كاتب الإنشا بديوان الخلافة ، وكان فاضلًا ، أديباً ذا تقدم كثير عند الخلفاء والسلاطين ، وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى الآن ، في ديوان الخلافة، وعاش حتى قارب تسعين سنة، وهو من الشعراء المشهورين ، إلا أنه كثير الهجر، ومن شعره :

يا مَنْ هَجَرت ولا تبالي	هلْ ترجعُ دولةُ الوصالِ ؟
هل ، أطمع يا عذابَ قلبي	أنْ ينعمَ في هواكِ بالي
الطرف كما عِهدت باكٍ	والجسمُ ، كما ترين ، بالِ
ما ضركِ أنْ تعلليني	في الوصلِ بموعد المحال

أهواك ، وأنتِ حظ غيري   يا قاتلتي ، فما احتيالي
وهى أكثر من هذا .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ذكر مسير شيركوه ، وعساكر نور الدين إلى ديار مصر، وعودهم عنها

في هذه السنة ، في جمادى الأولى ، سير نور الدين محمود بن زنكي عسكراً كثيراً إلى مصر، وجعل عليهم الأمير أسد الدين شِيركوه بن شاذي ، وهو مقدم عسكره ، وأكبر أمراء دولته ، وأشجعهم – وسنذكر سنة أرج وستين سبب اتصاله بنور الدين ، وعلو شأنه عنده ، إن شاء الله تعالى – وكان سبب إرسال هذا الجيش ، أنّ شاور وزير العاضد لدين الله العلوي ، صاحب مصر نازعه في الوزارة ضرغام ، وغلب عليها ، فهرب شاور منه إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين ، ومستجيراً به ، فأكرم مثواه ، وأحسن إليه ، وأنعم عليه ، وكان وصوله في ربيع الأول من السنة، وطلبه منه إرسال العساكر معه إلى مصر، ليعود إلى منصبه ، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون شيركوه مقيماً بعساكره في مصر، ويتصرف هو بأمر نور الدين ، يقدم إلى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه ، وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق ، وأنّ الفرنج فيه ، وتخوف أنّ شاور إنِ استقرت قاعدته ، ربما لا يفي ، ثم قوي عزمه على إرسال الجيوش ، فتقدم بتجهيزها، وإزاحة عللها، وكان هوى أسد الدين في ذلك ، وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي بمخافة ، فتجهز، وساروا جميعاً ، وشاور في صحبتهم ، في جِمادى الأولى ، من سنة تسع وخمسين ، وتقدم نور الدين إلى شيركوه أنْ يعيد شاور إلى منصبه ، وينتقم له ممن نازعه فيه ، وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج ، مما يلي دمشق بعساكره ، ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين ومن معه ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ، ووصل أسد الدين ، والعساكر معه ، إلى مدينة بلبيس ، فخرج إليهم ناصر الدين ، أخو ضرغام ، بعسكر المصريين ولقيم ، فانهزم ، وعاد إلى القاهرة ، ووصل

أسد الدِين ، فنزل على القاهرة ، أواخر جمادى الآخرة ، فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر، فَقُتِل عند مشهد السيدة نفيسة، وبقي يومين ، ثم حمل ودفن فيِ القرافة، وقتِل أخوه فارس المسلمين ، وخلِع على شاور، مستهل رجب ، وأعيد إلى الوزارة ، وتمكن منها.

وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، فغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ، ولأسد الدين أيضاً ، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام ، فأعاد الجواب بالامتناع ، وطلب ما كان قد استقر بينهم ، فلم يجبه شاور إليه ، فلما رأى ذلك ، أرسل إلى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ، ويخوفهم من نور الدين إنْ ملك مصر، وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن تم ملكه لها ، فلما أرسل شاور يطلب منهم أنْ يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد، جاءهم فرج لم يحتسبوه ، وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته ، وطمعوا في تلك الديار المصرية، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه ، وتجهزوا وساروا ، فلما بلغ نور الدين ذلك ، سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ، ليمتنعوا عن المسير، فلم يمنعهم ذلك ، لعلمهم أنّ الخطر في مقامهم ، إذا ملك أسد الدين مصر، أشد! فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر، لزيارة البيت المقدس ، فاستعان بهم الفرنج الساحلية ، فأعانوهم فسار بعضهم معهم ، وأقام بعضهم في البلاد لحفظها، فلما قارب الفرنج مصر، فارقها أسد الدين ، وقصد مدينة بلبيس ، فأقام بها هو وعسكره ،وجعلها له ظهرا يتحصن به ، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ، ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس ، وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو ممتنع بها ، مع أن سورها قصير جداً ،وليس لها خندق ، ولا فصل يحميها، وهو يغاديهم القتال ، ويراوحهم ، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً، فبينما هم كذلك ، إذْ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم ، ومُلْك نور الدين حارم ، ومسيره إلى بانياس على ما نذكره ، إِن شاء الله تعالى ،فحينئذ سقط في أيديهم ، وأرادوا العودة إلى بلادهم ، ليحفظوها ، فراسلوا أسد الدين

في الصلح ، والعود إلى الشام ، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين ، فأجابهم إلى ذلك ، لأنه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ، ولأن الأقوات والذخائر قلت عليه ، وخرج من بلبيس ، في ذي الحجة، فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من

بلبيس ، قال : أخرج أصحابه بين يديه ، وبقي في آخرهم ، وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم ، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه ، قال : فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر، فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج ، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، ولا يبقى لكم بقية؟ فقال شيركوه : يا ليتهم فعلوه ، حتى كنت ترى ما أفعله ، كنت والله أضع السيف ، فلا يُقْتل منّا رجل ، حتى يُقْتل منهم رجال ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين ، وقد ضعفوا، وفني شجعانهم ، فنملك بلادهم ، ونهلك من بقي ، والله لو أطاعني هؤلاء، لخرجت إليكم من أول يوم ، ولكنهم امتنعوا، فصلب على وجهه ، وقال : كنا نعجب من فرنج هذه البلاد، ومبالغتهم في صفتك ، وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم ، ثم رجع عنه ، وسار شيركوه إلى الشام ، فوصل سالماً، وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصداً ، ليأخذوه ،أو ينالوا منه ظفراً ، فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق ، ففيه يقول عمارة :

أَخَذْتُمْ عنِ الإفرنجَ كل ثنية * وقلْتُ لأيدي الخيل مرّي على (مري)

لئن نصبوا في البرِّ جسراً فإنكمْ * عبرتُمْ ببحرٍ مِنْ حديدٍ على الجسرِ

ولفظة مري ، في آخر البيت الأول ، اسم ملك الفرنج .

ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارِم (1)

في هذه السنة، في شهر رمضان ، فتح نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارِم من الفرنج ، وسبب ذلك ، أنّ نور الدين لما عاد منهزماً من البقيعة تحت حصن الأكراد، - كما ذكرناه قبل - فرق . الأموال والسلام ، وغير ذلك من الآلات ، على ما تقدم ، فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا ، وأخذ في الاستعداد للجهاد، والأخذ بثأره ، واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم إلى مصر، كما ذكرناه ، فأراد أن يقصد بلادهم ، ليعودوا عن مصر، فأرسل إلى أخيه قطب الدين مودود، صاحب الموصل وديار الجزيرة ، ط لى فخر الدين قرا أرسلان ، صاحب حصن كيفا،وإلى نجم الدين ألبي ، صاحب ماردين ، وغيرهم من أصحاب الأطراف ، يستنجدهم ، فأما قطب

الدين ، فإنه جمع عسكره ، وسار مجداً، وفي مقدمته زين الدين علي أمير جيشه . وأما فخر الدين ، صاحب

(1) حارِم : بكسر الراء ، حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية، هي الان من أعمال حلب .

الحصن ، فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أي شيء عزمت ؟ فقال : على التعود، فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، وهو يلقي نفسه في المهالك ، فكلهم وافقه على هذا الرأي ، فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك : (ما عدا مما بدا)، فارقناك أمس على حالة، فنراك اليوم على ضدها، فقال : ان نور الدين قد سلك معي طريقاً ، إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فانه قد كاتب زهادها وعبادها، والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج ، وما نالهم من القتل والأسر، ويستمد منهم الدعاء، ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من أولئك ، ومعه أصحابه وأتباعه ، وهم يقرؤون ، كتب نور الدين ، ويبكون ، ويلعنونني ويدعون علي ، فلا بد من المسير إليه ، ثم تجهز، وسار بنفسه ، وأما نجم الدين فانه سير عسكراً .

فلما اجتمعت العساكر، سار نحو حارِم ، فحصرها، ونصب عليها المجانيق ، وتابع الزحف إليها، فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج فجاؤوا في حدهم ، وَحَدِيدهم ، وملوكهم ، وفرسانهم ، وقسوسهم ، ورهبانهم ، وأقبلوا إليه من كل حدبٍ يَنْسِلون ، وكان المقدم عليهم ، البرنس بيمند صاحب أنطاكية وقمص – صاحب طرابلس وأعمالها ، وا بن جوسلين – وهو من مشاهير الفرنج – والدوك – وهو مقدم كبير من الروم وجمعوا الفارس والراجل فلما قاربوه ، رحل عن حارم إلى أرتاخ ، طمعاً أن يتبعوه ، فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه ، فساروا ة فنزلوا على غمر،ثم علموا عجزهم عن لقائه ، فعادوا إلى حارِم ، فلما عادوا ، تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبية الحرب ، فلما تقاربوا، اصطفوا للقتال ، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين ، وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن ، فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج .

فقيل ، كانت تلك الهزيمة من الميمنة، على اتفاق ورأي دَبرُوه ،وهو أن يتبعهم الفرنج ، فيبعدوا عن راجلهم ، فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف ،– فإذا عاد فرسانهم ، لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه ،

ولا وزيراً يعتمدون عليه ، ويرد المنهزمون في آثارهم ، فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ،ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، فكان الأمر على ما دبروه ، فان الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف عليهم

زين الدين علي ، في عسكر الموصل ، على راجل الفرنج ، فأفناهم قتلاً وأسراً ، وعاد خيالتهم ، ولم يمنعوا في الطلب خوفاً على راجلهم ، فعاد المنهزمون في آثارهم ، فلما وصل الفرنج ، رأوا رجالهم قتلى وأسرى، فسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد هلكوا ، ولقوا في الوسط قد أحدق بهم المسلمون من كل جانب ، فاشتدت الحرب وقامت على ساق ، وكثُر القتل في الفرنج ، وتمت عليهم الهزيمة ، فعدل حينئذ المسلمون عن القتل الى الأسر، فأسروا ما لا يحد وفي جملة الأسرى، صاحب أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس – وكان شيطان الفرنج ، وأشدهم شكيمة على المسلمين – والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل ، وأشار– المسلمون على نور الدين بالمسير إلى أنطاكية ، وتملكها ، لخلوها من حام يحميها ، ومقاتل يدب عنها ، فلم يفعل ، وقال : أما المدينة، فأمرها سهل ، وأما القلعة فمنيعة، وربما سلموها إلى ملك الروم ، لأن صاحبها ابن أخيه ، ومجاورة بيمند أحب إلي من مجاورة صاحب قسطنطينية ، وبث السرايا في تلك الأعمال ، فنهبوها ، وأسروا أهلها ، وقتلوهم ، ثم إنه فادى برنس بيمند ، صاحب أنطاكية ، واشترى من المسلمين خلقاً كثيراً ، فأطلقهم .

ذكر ملك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضاً

في ذي الحجة من هذه السنة، فتح نور الدين محمود قلعة بانياس ، وهي بالقرب

من دمشق ، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ولما فتح حارم ، أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج همتهم حفظها وتقويتها، فسار محمود إلى بانياس ، لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها، ونازلها، وضيق عليها، وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران ، فأصابه سهم ، فأذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين ، قال له : لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك ، لتمنيت ذهاب الأخرى، وجد في حصارها ، فسمع الفرنج ، فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم ،

وأسرهم ، فملك القلعة وملأها ذخائر، وعدة ورجالاً، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها، مالًا في كل سنة، ووصل خبر ملك حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر، فصالحوا شيركوه ، وعادوا ليدركوا بانياس ، فلم يصلوا إلا وقد ملكها ،ولما عاد منها إلى دمشق ،

كان بيده خاتم بفص ياقوت ، من أحسن الجوهر، وكان يسمى الجبل لكبره وحسنه ، فسقط من يده في شعراء بانياس ، وهي كثيرة الأشجار، ملتفة الأغصان ، فلما أبعد عن المكان الذي ضاع فيه ، علم به ، فأعاد أصحابه في طلبه ، ودلهم على المكان الذي كان آخر عهده به فيه ، وقال : أظنه هناك ، سقط ، فعادوا إليه ، فوجدوه ، فتال بعض الشعراء الشاميين أظنه ابن منير، يمدحه ، ويهنئه بهذه الغزاة، ويذكر الجبل الياقوت .

إن يمتر الشكاك فيك بأنك   المهدي مطفي جمرة الدجالِ
فلعودةِ الجبلِ الذي أضللتَهُ   بالأمسِ بين غياطِلَ وجبالِ
لمْ يعطها إلا سليمانُ وقدْ   نبت الربا بموشكِ الأعجالِ
وحرحرَ لسريرِ ملككِ إنهُ   كسريرهِ عن كل حدّ عالي
فلو البحارُ السبعةُ استهويْتَهُ   وأمرتَهُنّ قَذَفْتَهُ في الحالِ

ولما فتح الحصن ، كان معه ولد معين الدين أنز، الذي سلم بانياس إلى الفرنج ، فقال له : للمسلمين بعد الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان ، فقال : كيف ذاك ، قال : لأن اليوم ، برد الله جلد والدك مِنْ نار جهنم .

ذكر أخذ الأتراك غزنة من ملكشاه ، وعوده إليها

في هذه السنة، قصد بلاد غزنة، الأتراك المعروفون بغز ، و نهبوها وخربوها، وقصدوا غزنة، وبها ملكشاه بن خسروشاه المحمودي ، فعلم أنّه لا طاقة له بهم ، ففارقها، وسارا إلى مدينة لهاوور، وملك الغز مدينة غزنة ، وكان القيّم بأمرهم أميراً اسمه زنكي بن خليفة الشيباني ، ثم إن صاحبها ملكشاه ، جمع ، وعاد إلى غزنة، ففارقها زنكي ، وعاد ملكها ملكشاه ، ودخلها في جمادى الآخرة ، سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وتمكن في دار ملكه .

ذكر وفاة جمال الدين الوزير، وشيء من سيرته

في هذه السنة، توفي جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني ، وزير قطب الدين ، صاحب الموصل ، في شعبان ، مقبوضاً ، وكان قد قُبِضَ عليه سنة ثمان وخمسين ، فبقي في الحبس نحو سنة .

حكى لي إنسان صوفي ، يقال له أبو القاسم ، كان مختصاً بخدمته في الحبس ،

قال : لم يزل مشغولاً في محبسه بأمر آخرته ، وكان يقول : كنت أخشى أن أنقُل من الدست إلى القبر، فلما اتفق أن مرض قال لي : في بعض الأيام : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار، فعرفني ، قال : فقلتُ في نفسي ، قد اختلط عقله ، فلما كان الغد، أكثر السؤال عنه ، لاذا طائر أبيض لم أر مثله ، قد سقط ، فقلت جاء الطائر فاستبشر، ثم قال:جاء الحق ،وأقبل على الشهادة، وذكر الله تعالى إلى أن توفي ، فلما توفيِ ، طار ذلك الطائر، فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه ، ودُفن بالموصل عند فتح الكرامي رحمة الله عليهما نحو سنة، ثم نُقل إلى المدينة فَدُفِنَ بالقرب من حرم النبي صلى الله عليه وسلم في رباط بناه لنفسه ، وقال لأبي القاسم ، بيني وبين أسد الدين شيركوه عهدٌ ، من مات منا قبل صاحبه ، حمله إلى المدينة، فدفنه بها في التربة التي عملها ، فإذا أنا مت ،فامض إليه ، وذكره؛ فلما توفي سار أبو القاسم إلى شيركوه في المعنى ، فقال له شيركوه : كم تريد؟ فقال : أريد أجرة جمل يحمله ، وجمل يحملني ، وزادي ، فانتهره ، وقاك : مثل جمال الدين يحمل هكذا إلى مكة، واعطاه مالاً صالحاً، ليحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين ، وجماعة يقرؤون عليه بين يدي تابوته ، إذا حمل ،وإذا نُزَل عن الجمل ، لاذا وصل إلى مدينة، يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه ، فيُصلّى عليه في كل بلدة يجتاز بها، وأعطاه أيضاً ، مالاً للصدقة عنه ، فصلّى عليه ، في تكريت ، وبغداد، والحلة وفيد، ومكة والمدينة، وكان يجمع له في كل بلد من الخلق ما لا يحصى ، ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة، صعد شاب على موضع مرتفع ، وأنشد بأعلى صوته :

سري نعشُهُ فوقَ الرّقابِ ، وطالما سرى جودُهُ فوق الركاب ونائلُه

يمر على الوادي فثمني ماله عليه ، وبالنادي فتشي أرامِلُهْ

فلم تر باكياً أكثر من ذلك اليوم ، فطافوا به حول الكعبة، وصلوا عليه بالحرم الشريف ، وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعاً .

وأما سيرته فكان ، رحمه الله ، أسخى الناس ، وأكثرهم بذلاً للمال ، رحيماً بالخلق ، متعطفاً عليهم ، عادلاً فيهم ، فمن أعماله الحسنة، أنه جدد بناء مسجد الخيف بمن ، وغرم عليه أموالًا كثيرة جسيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ، وزخرف الكعبة، وذهبها، وعملها بالرخام ، ولما أراد ذلك ، أرسل إلى المقتفي لأمر الله هديةً جليلة

وطلب منه ذلك ، وأرسل إلى الأمير عيسى ، أمير مكة، هدية كبيرة، وخلعاً سنية : منها عمامة شراها ثلاثمائة دينار، حتى مكنه من ذلك ، وعمّر أيضاً، المسجد الذي على جبل عرفات ، والدرج التي يُصعد فيها إليه وكان الناس يلقون شدة في صعودهم –وعمل بعرفات أيضاً، مصانع للماء، وأجرى الماء إليها، من نعمان ، في طرق معمولة تحت الأرض ، فخرج عليها مال كثير، وكان يجري الماء في المصانع كل ، سنة أيام عرفات ، وبنى سوراً على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى قيد، وبنى لها أيضاً، فصيلاً وكان يُخرج على باب داره كل يوم ، للصعاليك والفقراء ، مائة دينار أميري ، هذا سوى الإدرارات ، والتعهدات للأئمة ،والصالحين ، وأرباب البيوت ، ومن أبنيته العجيبة ،التي لم ير الناس مثلها ، الجسر الذي بناه على دجلة ، عند جزيرة ابن عمر، بالحجر المنحوت ، والحديد والرصاص والكاس ، فقُبض قبل أنْ يفرغ ، وبنى عندها أيضاً جسراً ، كذلك على النهر المعروف بالأرماد، وبنى الربط ، وقصده الناس من أقطار الأرض ، ويكفيه أن ابن الخجندي ، رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان ، قصده وابن الكافي ، قاضي همذان ، فأخرج عليهما مالاً عظيماً وكانت صدقاته وصلاته من أقاصي خراسان إلى حدود اليمن ، وكان يشتري الأسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار، هذا من الشام حسب ، سوى ما يُشترى مِنَ الكرج .

حكى لي والدي عنه قال : كثيراً ما كنت أرى، جمال الدين ، إذا قُدِّم إليه الطعام ،

يأخذ منه ومِنَ الحلوى، ويتركه في خبزٍ بين يديه ، فكنت أنا، ومن يراه ، نظن أنه يحمله إلى أم ولده ، علي ، فاتفق أنه في بعض السنين ، جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين ، وكنت أتولى ديوانها ، وحمل جاريته أم ولده إلى داري لتدخل الحمام ، فبقيت في الدار أياماً، فبينما أنا عنده في الخيام ، وقد أكل الطعام ، فعل كما كان يفعل ، ثم تفرق الناس ، فقمت فقال : أقعد، فقعدت ، فلما خلا المكان ، قال لي : قد آثرتك اليوم على نفسي ، فإنني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله ، خذ هذا الخبز، واحمله أنت في كمك ، في هذا المنديل ، واترك الحماقة من

رأسك ، وعد إلى بيتك ، فإذا رأيت في طريقك فقيراً يقع في نفسك أنه مستحق ، فاقعد أنت بنفسك ، وأطعمه هذا الطعام . قال : ففعلت ذلك ، وكان معي جمع كثير، ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك ، وبقيت في غلماني ، فرأيت في موضع إنساناً أعمى ، وعنده أولاده وزوجته ، وهم من الفقر في حالٍ شديد، فنزلت عن دابتي إليهم ، وأخرجت الطعام ، وأطعمتهم إياه ،

وقلت للرجل تجيء غداً بكرة إلى دار فلان ، أعني داري ، ولم أعرفه نفسي ، فإنني آخذ لك من صدقة ج صال الدين شيئاً، ثم ركبت إليه العصر، فلما رآني قال : ما الذي فعلت في الذي قلت لك ؟ فأخذت أذكر له شيئاً يتعلق بدولتهم ، فقال : ليس عن هذا أسألك ، وإنما أسألك عن الطعام الذي سلمته إليك ، فذكرت له الحال ، ففرح ثم قال : بقي أنك لو قلت للرجل يجيء إليك هو وأهله ، فتكسوهم ، وتعطيهم دنانير، وتجري لهم كل شهر دنانير، قال فقلت له ، قد قلت للرجل حتى يجيء إلي . فازداد فرحاً. وفعلت بالرجل ما قال ، ولم يزل يصل إليه رسمه ، حتى قُبِضَ ، وله من هذا كثير، فمن ذلك أنه تصدق بثيابه مِنْ على بدنه ، في بعض السنين التي تعذرت الأقوات فيها .

ذكر اجلاء القارغلية من وراء النهر

كان خان خانان الصيني ، ملك الخطا، قد فوض ولاية سمرقند وبخارا إلى الخان جغري خان بن حسن تكين ، واستعمله عليهما، وهو من بيت الملك ، قديم الأبوة، فبقي قيها، مدبراً لأمورها، فلما كان الآن ، أرسل إليه ملك الخطا بإجلاء الأتراك القارغلية من أعمال بخارا وسمرقند إلى كاشغر، وأن يتركوا حمل السلاح ، ويشتغلوا بالزراعة ، وغيرها من الأعمال ، فتقدم جغري خان إليهم ، بذلك ، فامتنعوا ، فألزمهم ، وألح عليهم بالانتقال ، فاجتمعوا ، وصارت كلمتهم واحدة فكثُروا ، وساروا إلى بخارا ، فأرسل الفقيه محمد بن عمر بن برهان الدين عبد العزيز بن مازة، رئيس بخارا، إلى جغري خان يعلمه ابن مازة يقول لهم : إنّ الكفار ذلك ويحسه على الوصول إليهم بعساكره ، قبل أن يعظم سره ، وينهب البلاد ، وأرسل إليهم بالأمس لما طرقوا هذه البلاد امتنعوا عن النهب ، والقتل ، وأنتم مسلمون غزاة، يقبح بكم مد الأيدي إلى الأموال والدماء ، وأنا أبذل لكم من الأموال ما ترضون به ، لتكفوا عن النهب والغارة ، فترددت الرسل بينهم في تقرير القاعدة ، وابن مازة يطاول بهم ، ويمادي الأيام ، إلى أن وصل جغري خان ، فلم يشعر الأتراك القارغلية إلا وقد دهمهم جغري خان في جيوشه ، وجموعه بغتة ، ووضع السيف فيهم ، فانهزموا ، وتفرقوا ، وكثر القتل فيهم ، والنهب ، واختفى طائفةٌ منهم في الغياض

والآجام ، ثم طفر بهم أصحاب جغري خان ، فقطعوا دابرهم ، ودفعوا عن بخارا ونواحيها ضررهم وخلت الأرض منهم .

ذكر استيلاء سنقر على الطالقان وغرشتان

في هذه السنة، استولى الأمير صلاح الدين سنقر، وهو من مماليك السنجرية، على بلاد الطالقان ، وأغار على حدود غرشتان ، وتابع الغارات عليها حتى ملكها ، فصار الولايتان له ، وبحكمه ، وله فيها حصون منيعة ، وقلاع حصينة ، وصالح الأمراء الغزية، وحمل لهم الإتاوة كل سنة .

ذكر قَتْل صاحب هراة

كان صاحب هراة ايتكين ، بينه وبين الغز مهادنة، فلما توفي ملك الغور محمد، طمع في بلادهم ، فغزاهم غير مرة، ونهب وأغار، فلما كان في شهر رمضان من هذه السنة ، جمع ايتكين جموعه ، وسار إلى بلاد الغور، وساروا إلى باميان ، وإلى ولاية بست والرخج ، فقاتله صاحبها طغرل تكين برنقش العلكي من قبل الغورية ، فظهروا إلى باميان ، واستولى على بست والرخج ، فسلمها إلى بعض أولاد ملوك الغور، وأما آيتكين ، فإنّه توغل في بلاد الغور، فأتاه أهلها، وقاتلوه ، وصده ، وصدقوه القتال ، فانهزم عسكره ، وقُتِل هو في المعركة .

ذكر ملك شاه مازندران قومس وبسطام

قد ذكرنا استيلاء المؤيد، صاحب نيسابور، على قومس ، وبسطام ، وكل البلاد، وأنه استناب بها مملوكه تنكزَ، فلما كان هذه السنة ، جهز شاه مازندران جيشاً ، واستعمل عليهم أميراً له ، يعرف بسابق الدين القزويني ، فسار إلى دامغان ، فملكها ، فجمع تنكز من عنده من العساكر، وسار إليه إلى دامغان ، فخرج إليه القزويني ، فوصل إلى تنكز على غرة منه ، فلم يشعر هو وعسكره إلا وقد كبسهم القزويني ، ووضع السيف فيهم ، فتفرقوا ، وولوا منهزمين ، واستولى عسكر شاه مازندران على تلك البلاد ، وعاد تنكز إلى المؤيد ، صاحب نيسابور، واشتغل بالغارة على بسطام وبلاد قومس .

ذكر عصيان غمارة بالمغرب

لما تحقق الناس موت عبد المؤمن ، سنة تسع وخمسين ، ثارت قبائل غمارة مع مفتاح بن عمرو، وكان مقدماً كبيراً ، وتبعوه بأجمعهم ، وامتنعوا في جبالهم ، وير معاقل

مانعة، وهم أمم جمة، فتجهز إليهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، ومعه أخواه عمرو وعثمان ، في جيشٍ كبير من الموحدين والعرب ، وتقدموا إليهم ، فاقتتلوا سنة إحدى وستين وخمسمائة ، فانهزمت عمارة، وقتل منهم كثير، وفيمن قُتِلَ ، مفتاح بن عمرو مقدمهم ، وجماعة من أعيانهم ومقدميهم ، وملكوا بلادهم عنوة، وكان هناك قبائل كثيرة يريدون الفتنة، فانتظروا ما يكون من غمارة، فلما قُتِلوا ذلت تلك القبائل ، وانقادوا للطاعة، ولم يبق متحرك لفتنة ومعصية، فسكنت الدهماء في جميع المغرب .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أغار الأمير محمد بن أنز ، على بلد الإسماعيلية بخراسان ، وأهلها غافلون ، فقتل منهم وغنم وأسر، وأكثر، وملأ أصحابه أيديهم من ذلك .

وفيها ، توفي أبو الفضل نصر بن خلف ، ملك سجستان ، وعمره أكثر من مائة سنة،

ومدة ملكه ثمانون سنة، وملك بعده ابنه شمس الدين أبو الفتح أحمد بن نصر، وكان أبو الفضل ملكاً عادلًا عفيفاً عن رعيته ، وله آثار حسنة قي نصرة السلطان سنجر في غير موقف .

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية في عساكر لا تحصى، وقصد بلاد الإسلام ، التي بيد قلج أرسلان وابن دانشمند، فاجتمع التركمان في تلك البلاد في جمع كثير، فكانوا يغيرون على أطراف عسكره ليلًا ، فإذا أصبح لا يرى أحداً وكَثر القتل في الروم ، حتى بلغت عدة القتلى عشرات ألوف ، فعاد إلى القسطنطينية، ولما عاد ملك المسلمون منه عدة حصون .

وقيها توفي الإمام عمر الخوارزمي ، خطيب بلخ ومفتيها بها ، والقاضي أنجو بكر المحمودي ، صاحب التصانيف والأشعار، وله مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريري بالعربية .

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

ذكر وفاة شاه مازندران وملك ابنه بعده

في هذه السنة ، ثامن ربيع الأول ، توفي شاه مازندران رستم بن علي بن شهريار بن

قارن ، ولما توفي كتم ابنه علاء الدين الحسن موته أياماً، حتى استولى على سائر الحصون والبلاد، ثم أظهره ، فلما ظهر خبر وفاته ، أظهر إيثاق ، صاحب جرجان ودهستان ، المنازعة لولده في الملك ، ولم يرع حق أبيه عليه ، فإنه لم يزل يذب عنه ، ويحميه إذا التجأ إليه ، ولكن الملك عقيم ، ولم يحصل من منازعته على شيء ، غير سوء السمعة، وقبح الأحدوثة .

ذكر حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها

كان المؤيد قد سير جيشاً إلى مدينة نسا، فحصروها إلى جمادى الأولى ، في هذه السنة ، فسير خوارزمشاه بن أرسلان بن أتسن ، جيشاً إلى نسا ، فلما قاربوها ، رحل عنها عسكر المؤيد، وعادوا إلى نيسابور أواخر جمادى الأولى ، وسار عسكر المؤيد إلى عسكر خوارزم ، لأنهم توجهوا إلى نيسابور، فتقدم العسكر المؤيدي ، ليردوهم عنها، فلما سمع العسكر الخوارزمي بهم ، عاد عنهم ، وصار صاحب نسا، في طاعة خوارزمشاه ، والخطبة له فيها ، وسار عسكر خوارزم إلى دهستان ، فالتجأ صاحبها الأمير إيثاق إلى المؤيد، صاحب نيسابور، بعد تمكن الوحشة بينهما ، فقبله المؤيد ، بأحسن قبول ، وسير إليه جيشاً كثيفاً، فأقاموا عنده ، حتى دفع الضرر عن نفسه وبلده من جهة طبرستان ، وأمادهستان ، فان عسكر خوارزم غلبوا عليها، وصار لهم فيها شحنة .

ذكر استيلاء المؤيد على هراة

قد ذكرنا، قتل صاحب هراة، سنة تسع وخمسين ، فلما قُتِلَ تجهز الأمراء الغزية،

وساروا إلى هراة ، وحصروها ، وقد تولى أمرها إنسانٌ يلقب أثير الدين ، وكان له ميل الى الغز، وهو يحاربهم طاهراً ويراسلهم باطناً، فهلك ،لهذا السبب ،خلق كثير من أهل هراة ، فاجتمع إليها أهلها ،فقتلوه ، وقام مقامه أبو الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي ، فأرسل أهلها إلى المؤيد أي أبه ، صاحب نيسابور،بالطاعة والانقياد إليه ، فسير إليهم مملوكه ، سيف الدين تنكز، في جيشٍ ، وسير جيشاً آخر، أغاروا على سرخس ومرْو، فأخذوا دواب الغز، وعادوا سالمين ، فلما سمح الغز بذلك ، رحلوا عن هراة إلى مرو.

ذكر الحرب بين قَلج أرسلان وبين ابن الدانِشمنَد

في هذه السنة، كانت الفتنة برين الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ، صاحب قونية وما يجاورها من بلد الروم ، وبين ياغي أرسلان بن دانشمند، صاحب ملطية وما يجاورها من بلد الروم ، وجرى بينهما حرب شديدة، وسببها، أن قلج أرسلان تزوّج ابنة الملك صلتق بن علي بن أبي القاسم ، فسُيرت الزوجة إلى قلج أرسلان ، مع جهاز كثير، لا يعلم قدره ، وأغار ياغي ، صاحب ملطية عليه ، وأخذ العروس وما معها ، وأراد أن يزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن دانشمند، فأمرها بالردة عن الإسلام ، فزوجها من ابن أخيه ، فجمع قلج أرسلان عسكره ، وسار إلى ابن دانشمند ، فالتقيا واقتتلا ، فانهزم قلج أرسلان ، والتجأ إلى ملك الروم ، واستنصره ، فأرسل إليه جيشاً كثيراً، فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الأيام ، وملك قلج أرسلان بعض بلاده ، واصطلح هو والملك إبراهيم بن محمد بن دانشمند، لأنه ملك البلاد بعد عمه ياغي أرسلان ، واستولى ذو النون بن محمد بن دانشمند على مدينة قيسارية ، وملك شاهان شاه بن مسعود، أخو قلج أرسلان ، على مدينة أنكورية، واستقرت القواعد بينهم ، واتفقوا .

ذكر الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان

في هذه السنة، كانت وحشة متأكدة، بين نور الدين محمود بن زنكي ، صاحب الشام ، وبين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ، صاحب الروم ، أدت إلى الحرب والتضاغن ، فلما بلغ خبرها إلى مصر، كتب

الصالح بن رزيك ، وزير صاحب مصر، إلى قلج أرسلان ينهاه عن ذلك ، وبأمره بموافقته ، وكتب فيه شعراً :

نقولُ ، ولكن أين مَنْ يتفهمُ — ويعلم وجْهَ الرأي والرأيُ مبهمُ

وَمَا كل من قاسَ الأمورَ وساسَها — يُوَفقُ للأمر الذي هو أحزمُ

وما أحدُ في الملكِ يبقى مخلداً — وما أحدُ مما قضى الله يسلمُ

أمِنْ بعد ما ذَاق العدا طعمُ حربِكُم — بفيهم وكانت وهي صابُ وعلقمُ

رجعتُمْ إلى حكمِ التنافسِ بينكمْ — وفيكُمْ مِنَ الشحناءِ نار تضرمُ

أما عندكم من يتقي الله وحدَهُ — أما في رعاياكُمْ مِن الناسِ مسلمُ

تعالوا لعل الله ينصرُ دينَهُ — إذا ما نصرْنا الدين نَحنُ وأنتمُ

وننهضُ نحوَ الكافرينَ بعزمةٍ — بأمثالِهَا تُحوىَ البلادُ وتقْسَمُ

وهي أطول من هذا .

هكذا ذكر بقض العلماء هذه الحادثة، وأن الصالح أرسل بهذا الشعر، فإن كان الشعر للصالح ، فينبغي أنْ تكون الحادثة قبل هذا التاريخ ، ويحتمل أن يكون هذا التنافس كان أيام الصالح ، فكتب الأبيات ، ثم امتد إلى الآن .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في صفر، وقع بأصفهان فتنة عظيمة، بين صدر الدين عبد اللطيف

ابن الخجندي وغيره من أصحاب المذاهب ، بسبب التعصب للمذاهب ، فدام القتال بين الطائفتين ثمانية أيام متتابعة، قُتل فيها خلقٌ كثير ، واحترق وهدم كثير من الدور والأسواق ، ثم افترقوا على أقبح صورة .

وفيها بنى الإسماعيلية قلعة ، بالقرب من قزوين ، فقيل لشمس الدين ايلدكز عنها،

فلم يكن له إنكار لهذه الحال خوفاً من شرهم ، وغائلتهم ، فتقدموا بعد ذلك إلى قزوين فحصروها، وقاتلهم أهلها أشد قتال رآه الناس . وحكى لي بعض أصدقائنا، بل مشايخنا من الأئمة الفضلاء، قال كنت بقزوين أشتغل بالعلم ، وكان بها إنسان يقود جمعاً كبيراً، وكان موصوفاً بالشجاعة، وله عصابة حمراء، إذا قاتل عصب بها رأسه ، قال : فكنت أحبه ، وأشتهي الجلوس معه ، قال : فبينما أنا عنده يوماً، وإذا هو يقول : كأني بالملاحدة ، وقد قصدوا البلد غداً ، فخرجنا إليهم ، وقاتلناهم ، فكنت أول الناس ، وأنا متعصب بهذه العصابة ، فقاتلناهم ، فلم يقتل غيري ، ثم ترجع الملاحدة ، ويرجع

أهل البلد، قال : فوالله لما كان الغد، إذ قد وقع الصوت بوصول الملاحدة، فخرج الناس ، قال : فذكرت قول الرجل ، فخرجت ، والله وليس لي همة ، إلا أني أنظر، هل يصح ما قال ، أم لا، قال : فلم يكن إلا قليل ، حتى عاد الناس ، وهو محمول على أيديهم قتيلًا بعصابته الحمراء، وذكروا أنه لم يُقتل بينهم غيره فبقيت متعجباً من قوله ، كيف صحّ ، ولم يتغير منه شيء ، ومن أين له هذا اليقين ، ولما حكى لي هذه الحكاية لم أسأله عن تاريخها، وإنما كان في هذه المدة في تلك البلاد، فلهذا أثبتها هذه السنة على الظن والتخمين.

وفيها، قبض المؤيد أي أبه ، صاحب نيسابور، على وزيره ضياء الملك محمد بن

أبي طالب سعد بن أبي القاسم محمود الرازي ، وحبسه ، واستوزر بعده نصير الدين أبا بكر محمد بن أبي نصر محمد المستوفي ، وهو من أعيان الدولة السنجرية .

وفي هذه السنة، وردت الأخبار أنّ الناس حجوا سنة تسع وخمسين ، ولقوا شدة، وانقطع منهم خلقٌ كثير في قيدوا الثعلبية وواقصة، وغيرها، وهلك كثير، ولم يمض الحجاج إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الأسباب ، ولشدة الغلاء فيها وعدم ما يقتات ،ووقع الوباء في البادية، وهلك منهم عالمٌ لا يحصون ، وهلكت مواشيهم ، وكانت الأسعار بمكة غالية.

وفيها، في صفر، قبض المستنجد بالله على الأمير توبة بن العقيلي ، وكان قد

قرُب منه قرباً عظيماً، ، بحيث يخلو معه ، وأحبه المستنجد محبة كثيرة، فحسده الوزير ابن هبيرة، فوضع كتباً من العجم مع قوم ، وأمرهم أن يتعرضوا، فيؤخذوا ، ففعلوا ذلك ، وأَخذوا ، وأحْضِروا عند الخليفة ، فأظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد، فلقا وقف الخليفة عليها، خرج إلى نهر الملك يتصيد، وكانت حلل توبة على الفرات ، فحضر عنده ، فأمر بالقبض عليه ، فقُبِض ، وأُدخِل بغداد ليلاً ، وحُبِس ، فكان آخر العهد به ، فلم يمنح الوزير بعده بالحياة ، بل مات بعد ثلاثة أشهر، وكان توبة من

أكمل العرب مروءةً ، وعقلاً، وسخاء ، وإجازة ، واجتمع فيه من خلال الكمال ما تفرق في الناس .

وفيها ، في ربيع الأول ، توفي الشهاب محمود بن عبد العزيز الحامدي الهروي ، وزير السلطان أرسلان ، ووزير أتابك شمس الدين أيلدكز .

وفيها ، توفي عون الدين الوزير ابن هبيرة، واسمه يحيى بن محمد بن المظفر، وزير الخليفة ، وكان موته في جمادى الأولى ، ومولده سنة تسعين وأربعمائة ، ودُفن بالمدرسة التي بناها للحنابلة ، بباب البصرة ، وكان حنبلي المذهب ، ديِّناً خيِّراً، عالماً، يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، –وله فيه التصانيف الحسنة، وكان ذا رأي سديد، ونافق على المقتفي نفاقاً عظيماً، حتى أنّ المقتفي كان يقول : لم يوزر لبني العباس مثله . ولما مات قبض على أولاده وأهله .

وتوفي بهذه السنة، محمد بن سعيد البغدادي بالموصل ، وله شعر حسن ، فمن قوله :

أَفدي الذي وكلني حبُّهُ　　　بطولِ إعلالي وأمراضي

ولست أدري بعد ذا كله　　　أساخطٌ مولاي ، أم راضي

وفيها، توفي الشيخ الإمام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزي الشافعي ، تفقه على الفقيه الكيا الهراسي ، وكان واحد عصره في الفقه ، تأتيه الفتاوى من العراق وخراسان ، وسائر البلاد ، وهو من جزيرة ابن عمر .

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ذكر فتح المُنيطرة من الفرنج

في هذه السنة، فتح نور الدين محمود بن زنكي حصن المنيطرة من الشام ، وكان

بيد الفرنج ، ولم يحشد له ، ولا جمع عساكره ، وإنما سار إليه جريدة على غرة منهم ، وعلم أنه إنْ جمع العساكر حذروا ، فسار إليه جريدة ، وانتهز الفرصة ، وحصره ، وجدّ في قتاله ، فأخذه عنوة وقهراً، وقتل من بها، وسبى ، وغنم غنيمة كثيرة، فإن الذين به ، كانوا آمنين فأخذتهم خيل الله بغتة، وهم لا يشعرون ، ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلا وقد ملكه ، ولو علموا أنه جريدة في قلة من العساكر، لأسرعوا إليه ، وإنما ظنّوه أنه في جمعٍ كثير، فلما ملكه تفرقوا، وأيسوا من رده .

ذكر قتل خطلوبرس مقطع واسط

في هذه السنة، قُتل خطلوبرس مقطع واسط ، قتله ابن أخي شملة، صاحب خوزستان ، وسبب ذلك ، أنّ ابن شنكا، وهو ابن أخي شملة، كان قد صاهر منكبرس مقطع البصرة، فاتفق أن المستنجد بالله قتل منكبرس سنة تسع وخمسين وخمسمائة، فلما قُتل ، قصد ابن شنكا البصرة، ونهب قراها، فأرسل من بغداد إلى كمشتكين ، صاحب البصرة، بمحاربة ابن شنكا، فقال : أنا عاملٌ لست بصاحب جيش ، يعني أنه ضامن ، لا يقدر على إقامة عسمكر، فطمع ابن شنكا، وأصد إلى واسط ، ونهب سوادها، فجمع خطلوبرس مقطعها جمعاً، وخرج إلى قتاله ، وكاتب ابن شنكا الأمراء الذين مع خطلوبرس ، فاستمالهم ، ثم قاتلهم ، فانهزمٍ عسكره ، فقتله ، وأخذ ابن ضنكا علم خطلوبرس ، فنصبه ، فلما رآه أصحابه ظنوه باقيا، فجعلوا يعودون إليه ، وكل من رجع ، أخذه ابن شنكا، فقتله أو أسره .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، خرج الكرج في جمع كثير، وأغاروا على بلدان حتى بلغوا كنجة، فقتلوا ، وأسروا ، وسبوا كثيراً ، ونهبوا ما لا يحصى .

وفيها، توفي الحسن بن العباس بن رستم ، أبو عبد الله الأصفهاني الرستمي ، الشيخ الصالح وهو مشهور، يروي عن أحمد بن خلف وغيره .

وفيها في ربيع الآخر، توفي الشيخ عبد القادر، ابن أبي صالح ، أبو محمد الجيلي ، المقيم ببغداد، ومولده سنة سبعين وأربعمائة، وكان من الصلاح على حال ، وهو حنبلي المذهب ، ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد .